

مصطفى المعنى

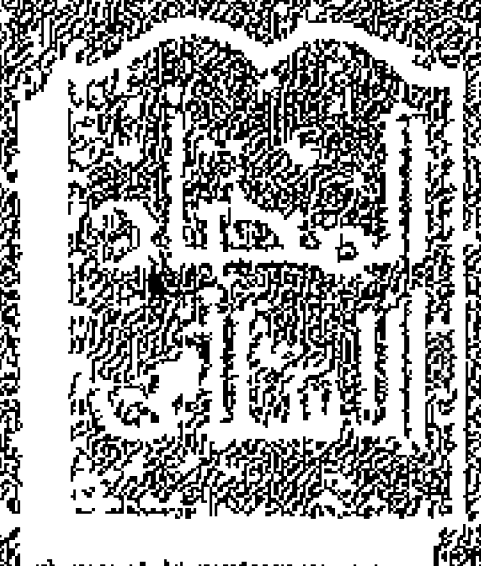
القبور

إمارة من رياض الجنة

أو حفرة من حفرة النار



الطبعة الأولى

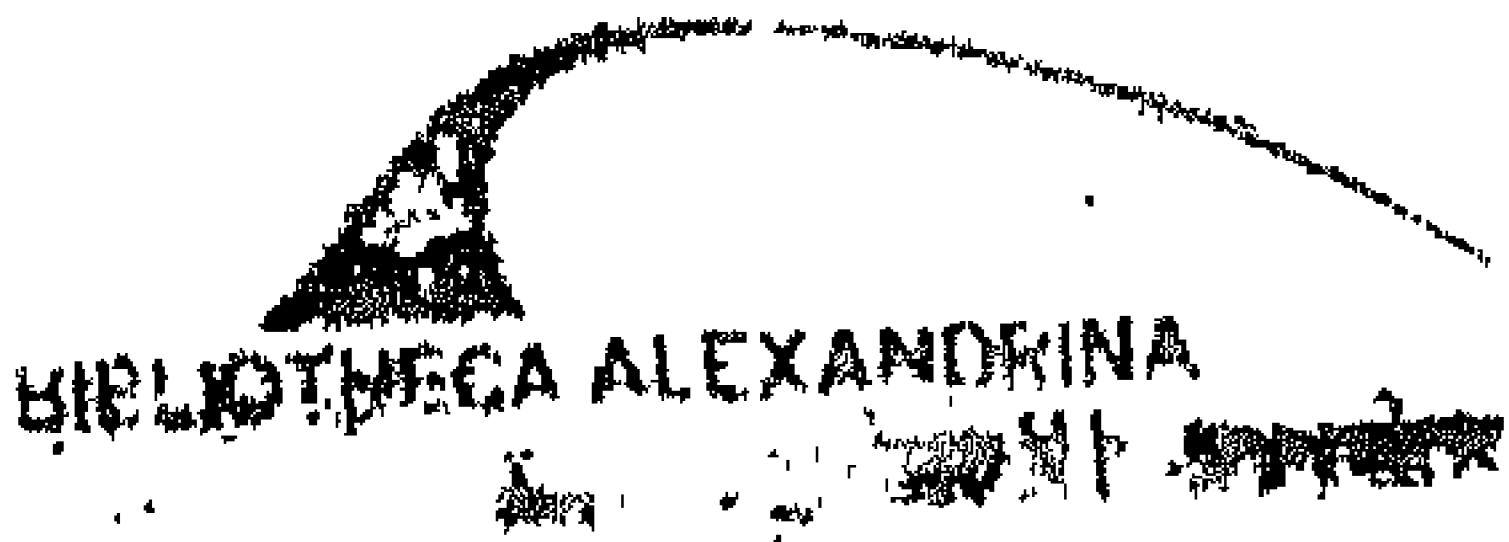


اهداءات ۲۰۰۲

مصطفى الممعى

القبر

إمارة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة النار



للنشر والتوزيع والتصدير

١٦ شارع كامل صدق بالقجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١
٩١٠٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ،
كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ،
كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون
النجيم ، ثم لترونها ، عين اليقين ،
ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .. به نستعين والصلاة والسلام على إمام الهدى سيد الأولين والآخرين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمدا عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

إن الرحلة إلى القبر وما فيه .. هى القضية الإيمانية الثانية بعد الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، والتي إذا اكتملت ضرورتها فى عقل الإنسان المؤمن .. ارتفعت به عن المعصية ... فيسمو إلى مراتب العبودية لله سبحانه وتعالى :

والرحلة إلى القبر «تبدأ بالموت .. الذى هو النهاية الحتمية لكل إنسان بل لكل حى فى هذه الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وما يلاقيه الإنسان فى سكرات الموت .. ثم السفر إلى القبر .. وما فيه من سؤال وعذاب ونعيم وحتى يوم البعث والنشور يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

إن هذه الرحلة كجزء من رحلة الآخرة .. يجب على كل مسلم أن يعلمها علما يقينيا، وأن يتعرف على مراحلها ، فهى بحق ميزان الأعمال فى الدنيا ، واجتياز مراحلها وتحمل حلوها ومرها ، وهى أيضا ترسم خطا من خطوط المنهج الربانى الذى ارتضاه الحق سبحانه وتعالى لعباده .

فمن الواجب على المسلم بل من المفروض عليه أن يؤمن أنه مسافر إلى الله سبحانه وتعالى .. وما حالنا فى هذه الحياة الدنيا إلا كحال المسافرين

المنتظر للقطار ، وما هذه الدنيا إلا محطة انتقال لذلك المسافر .. وداخل هذه المحطة أشياء كثيرة تعوق المسافر - إنها لا تعوقه عن السفر .. ولكنها تعوقه عن التزود بالزاد الذى يكفيه فى رحلته . قال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ .

فإن الله سبحانه وتعالى ما خلق الخلق إلا ليعبدوه ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وهذه هى الحكمة من خلق الخلق وهذه هى رسالتهم فى الحياة الدنيا والتى سوف يطالبون بها فى الآخرة ويحاسبون عليها .

فنحن ما خلقنا فى هذه الدنيا إلا لعبادة الله سبحانه وتعالى وتسبيحه وليس المأكل والمشرب والتكاثر فى الأموال والأولاد ، فكل هذه الأمور ما هى إلا زينة الحياة الدنيا .. وإذا كانت هذه الأشياء هى الزينة .. فأين الجوهر الذى تغطيه هذه الزينة ؟

نقول أن ذلك الجوهر هو : عبادة الله سبحانه وتعالى ، وهذه الزينة خلقها لنا الحق سبحانه وتعالى بل أن الحق تبارك وتعالى خلقها وسخرها لنا فى هذه الحياة الدنيا فقال تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ وقال تعالى وقوله الحق : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات والأرض ﴾ .

الدنيا وما فيها من زينة خلقت وسخرت لنا ، ونحن خلقنا لعبادة الله سبحانه وتعالى ، ولكن ما خلق لنا يشغلنا عما خلقنا له ، فزينة الدنيا من مال وبنون ، تشغلنا عن عبادة الله سبحانه وتعالى .. وهذا هو الداء الذى يقذف الناس فى غيابة النار منذ خلق الله الخلق وحتى تقوم الساعة .

والداء يكمن أولاً : فى الفرح بالدنيا والاعتزاز بها والحرص عليها إذا تزينت فتشغلنا بطلب المزيد منها .. فننسى ما بعدها ولا نعمل له وفى ذلك الخسران المبين .

ويكمن ثانيا: في الحزن عليها .. إذا تجردت من زينتها .. فيشغلنا التحسر على مافات منها .. فننسى ما هو آت لا ريب فيه .. وفي ذلك الخسران المبين .

ومن هنا نعلم أن زينة الدنيا هي رأس الفساد .. وهي المعوقات التي تلهي المسافر عن التزود بالزاد .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فهما الفتنة التي تشغل الناس عن الذكر .. في كلتا الحالتين .. إذا أقبلوا .. وإذا أدبروا .. فرحا بهما وحزنا عليهما وجزعا لفواتهما .. ولذلك ترى الحق سبحانه وتعالى يحذر الذين آمنوا من هذا الموقف بالذات فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. فإذا عرفنا الداء فأين الدواء ؟

الدواء على قسمين : هما : الإيمان والعمل الصالح .. فأما الإيمان فعلى شقين : الأول : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .. هذه أصول الإيمان كما ذكرها سيدنا رسول الله ﷺ .

أما الثاني : فهو الصبر : فالصبر ملاك الإيمان .. وزينة الإنسان .. ومفتاح الطريق إلى الله سبحانه وتعالى .. وإليه تسكن النفوس الخاشعة .. وبه تطمئن القلوب العامرة بالإيمان .. وفي ساحته تفر وتسترىح الأرواح الطاهرة الزكية .

ولقد ذكره الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعا وقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الصبر نصف الإيمان » .. وذلك لأن الصبر هو العلاج الوحيد لزينة الدنيا .. وأنظر معي إذا تزينت الدنيا للإنسان .. بزینتها ومتعها .. وبهجتها .. التي تخلب الألباب .. وتسحر النفوس .. ألم تر إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿١٠﴾ .

فإذا أقبلت الدنيا على الإنسان بتلك الزينة .. فمن الطبيعي أن يفرح بها
بقدر إقبالها عليه .. فكلما زاد إقبالها عليه .. زاد فرحه بها وانشغاله بها وهكذا
حتى ينسى الذكر .

وللصبر هنا دور .. فإذا تجملت بالصبر فلن تفرح ذلك الفرح
الشديد الذى ينسيك الذكر ولن تشغلك متعتها عن الذكر ، الذكر لصاحب
الفضل .

وهنا ينقلب فرحك بها إلى شكر لله سبحانه وتعالى وحمد على نعمته ..
فتكون ذلك الغنى الشاكر .. الذى يقول فيه الحق تبارك وتعالى فى الحديث
القدسى « أحب الغنى وحبى للغنى الشاكر أشد » .

وإذا أدبرت الدنيا .. وتجردت من زينتها .. رغم الحب العظيم الذى
يكفه الإنسان لها .. وحرصه عليها .. فيحزن عليها .. بقدر تجردها .. فكلما
زاد تجردها .. كلما زاد حزنه عليها .. والتحسر على ما فات منها .. حتى
ينسى الذكر .

وهنا يأتي دور الإيمان الحق .. فإن كان الإنسان مؤمناً حقاً فإنه يؤمن
تماماً أن الله سبحانه وتعالى .. مالك الملك .. يؤتى الملك من يشاء .. وينزع
الملك ممن يشاء ... ويعز من يشاء .. ويذل من يشاء .. فهو الذى يعطى
ويمنع .. وهو الذى يضر وينفع .. فإذا آمن بذلك كله فإنه لن يحزن عليها
ذلك الحزن الذى ينسيه الذكر .. بل سوف يلجأ إليه .. يلجأ إلى حماه ..
ويلوذ بجوراه .. ويضرع إليه ... ويسكن إلى رحمته .

ثم يأتي دور الصبر فإذا تجمل بالصبر .. وعلم أن الله مع الصابرين ..
انقلب حزنه عليها وتحسره على ما فات منها ... إلى إخبات واحتساب ..
فيكون ذلك الفقير الصابر الذى هو من أحبباء الله سبحانه وتعالى .. حيث
يقول تعالى فى الحديث القدسى : « أحب الفقير وحبى للفقير الصابر
أشد » .

وترى سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « عجباً لأمر المؤمن : أن أمره كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، أن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

أما القسم الثاني : فهو العمل الصالح .. والعمل الصالح ما هو إلا مظهر وعنوان القسم الأول .. فإذا كان الإيمان والصبر .. أمر باطن لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فإن العمل الصالح هو مظهر وعنوان هذا الأمر الباطن .. وهو مرتبط به ومرتب عليه .

فإذا رسخ الإيمان في القلب وتجلنا بالصبر كان هناك عمل صالح .. وإذا قل الإيمان .. كان العمل الصالح بقدر ما تبقى من الإيمان .

فإذا علمنا الداء وقدمنا له الدواء .. وعلمنا أننا مسافرون إلى الله سبحانه وتعالى في تلك الرحلة الإجبارية والتي هي من مشيئة الله تعالى النافذة في خلقه ...

كان لزاماً علينا أن نتبع خطوات هذه الرحلة على بساط القرآن الكريم وحديث سيدنا رسول الله ﷺ .. لنرى قدراً مما فيها وما سوف يلاقه الإنسان في جنباتها .. لأنها المحور الأساسي الذي تدور عليه الأعمال في هذه الحياة الدنيا .

فإذا اكتملت صورة هذه الرحلة الغيبية .. كما رسمها الحق سبحانه وتعالى وكما بينها سيدنا رسول الله ﷺ .. نقول إذا اكتملت هذه الصورة في عقل أحدنا .. وهذا لا يتأتى إلا بالإيمان الصادق .. وهنا يكون قد اجتمع له : الإيمان والعلم .. أقول إن هذا الذي اجتمع له الأمرين معا .. لا يجزئ على اقتراف المعصية أبداً .. لأنه يعلم ما سوف يلاقه عليها من عذاب .. وإن ذلت به القدم يوماً .. فإنه يكون أسرع في العودة إلى الله سبحانه وتعالى .. بالتوبة النصوح .. والمبادرة بالاستغفار .. فيكون ممن قال فيهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وتراه سباقا إلى الخيرات .. لأنه يعلم أيضا ما سوف يلقاه من أجر عليها ..

فكلما اكتملت صورة هذه الرحلة في عقل الإنسان المؤمن ورسخ بها الإيمان في قلبه كلما ابتعد عن المعصية وأسرع إلى فعل الخيرات وكان من عباد الله .. وكلما تناقصت صورة هذه الرحلة في عقل الإنسان .. استبعد صورة الجزاء والمحاسبة والعقاب على ما قدمت يداه .. فتراه مستهترا بكل القيم بل وبنفسه أيضا . فكلما اضمحلت هذه الصورة في عقله كلما تجرأ على ارتكاب المعاصي .. لأنه جاهل بحقيقة الحكمة من الخلق في هذه الحياة الدنيا .. ولا يجتمع الأمرين لأحد قط .

فكل الناس مسافرون إلى الله سبحانه وتعالى .. ولكن مع الفارق : منهم من تحمله أعماله التي أعدها في الحياة الدنيا عزيزا مكرمًا ...

ومنهم من تتنازعه أعماله فتحمله تارة ويحملها تارة أخرى .. ومنهم من يحمل أعماله الثقال .. ليس ذلك فقط بل وقدرًا من أعمال الآخرين .. يود لو أن بينه وبينها أمدا بعيدا .

فكل نفس ذائقة الموت .. يطلبهم الموت حثيثا فمن وافته المنية لا يخطئه للموت

فالموت كأس به سم ناعم	فيه الردى وكل حى شاربه
والقبر أضيق البيوت مظلم	ونزل كل ابن انثى ساكنه
والنار ورد فيه الهلاك	وكل الناس يوم البعث وارده
فقدم لذلك السم ترياقا	يهون عليك ياذا العقل سكرته
وأشعل لذلك الظلام مصباحا	يؤنسك ويرفع عنك وحشته
وأصنع لذلك الورد جسرا	فتنجو عليه فلا ترده

لذا كان لزاما علينا أن نسافر على بساط القرآن الكريم وحديث سيدنا
رسول الله ﷺ لنلقى نظرة على ما فيه من الموت وما يعانيه الإنسان في
سكراته .. ثم لندخل معا إلى القبر لننظر ما فيه وما يلاقيه الإنسان في جنباته ..
لعلها تكون عبرة لنا ، ونبراسا يهدينا في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى .
وعلى الله قصد السبيل .

الباب الأول

الفصل الأول : ذكر الموت

الفصل الثاني : سكرات الموت

الفصل الأول ذكر الموت

مقدمة :

كلنا مسافرون إلى الله سبحانه وتعالى .. وما حالنا في هذه الدنيا ..
إلا كحال المسافر المنتظر للقطار .. ولكن هناك أشياء تعوق المسافر في داخل
هذه المحطة .. أنها لا تعوقه عن السفر ولكنها تعوقه عن التزود بالزاد الذى
يكفيه في رحلته .. وتشغله عن المهمة التى يتأهب لها .

قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا
ترجعون ﴾^(١) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون
أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة
الدنيا إلا متاع الغرور ﴾^(٢) .

والآيات القرآنية التى ذكرت الموت كمشيئة لله سبحانه وتعالى فى خلقه
كثيرة ولسنا فى سبيل احصائها ويكفيها أن نسمع إلى قول الحق سبحانه
وتعالى .. ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملائكم ﴾^(٣) .

وروى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : « أكثروا من ذكر هازم
الذات » وقال رجل : يا رسول الله ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم
خلقا » . قال فأى الفريقين أكيس ؟ .. قال : أكثرهم للموت ذكرا ..

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ .

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٧ .

(٣) سورة الجمعة الآية : ٨ .

وأحسنهم لما بعده استعدادا .. أولئك الأكياس» (٤) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (٥) .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر الموت فإنه يحص الذنوب .. ويزهد في الدنيا » (٦) .

إن هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كلها تقرر أن الموت آت لا ريب فيه .. ولا مفر منه .. وأنه نهاية كل حي .. يقول الحق سبحانه وتعالى مخاطبا سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

كما أنها تقرر أن الموت ليس نهاية المطاف بالنسبة للإنسان ولكنه حلقة يأتي بعدها حلقات .. ونقلة للروح من بعدها نقلات .. ونهاية مرحلة من بعدها مراحل آخر .

والموت غيب لا يدري الإنسان متى يدركه .. والأجل خفى عن الإنسان لا يعلمه .. انه قدر الله سبحانه وتعالى ومشيئته في خلقه .. كتب عليهم الفناء وتفرد سبحانه وتعالى بالكمال والبقاء.. فقال وقوله الحق : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا ﴾ وقال سبحانه وتعالى مخاطبا سيدنا رسول الله ﷺ .. ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَ فِيهِمُ الْخَالِدُونَ ﴾ .

لا خلود لأحد في هذه الحياة الدنيا .. هذا هو قرار الحق سبحانه وتعالى وعلى ذلك أفمن العقل في شيء فرارنا من الموت ؟ ثم لماذا ننسى الموت ؟ ولماذا لا نعمل للموت ولما بعد الموت إذا كنا قد آمنا حقا بما قرر الحق سبحانه وتعالى

(٤) الحديث : رواه الترمذی .

(٥) الحديث : رواه الترمذی .

(٦) الحديث : رواه الترمذی .

على صفحات القرآن الكريم إذ يقول وقوله الحق : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

وإذا كان الموت نهاية لمرحلة الحياة الدنيا فإنه بداية لمرحلة أخرى وأنه نهاية لمرحلة عمل وتكليف .. وأنه بداية جزاء ووفاء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ .. الوفاء بالأجر فى الآخرة .. لا بد أن يكون قد سبقه عمل فى الحياة الدنيا .. وهذا العمل .. قد يكون كما يحب الله ويرضى .. وقد لا يكون كذلك .

فإن كان العمل السابق على الموت كما يحب الله ويرضى فإن الجنة هى المأوى .. وإن كان غير ذلك فإن النار هى المأوى ..

ولأن النفس البشرية فى طبيعة خلقها وتكوينها تهفوا إلى الشهوات .. والمملذات .. فقد أحاط الحق سبحانه وتعالى النار بهذه الشهوات .. ولأن النفس البشرية تهاب المكارهِ وتكره الشدائد .. جعل الحق سبحانه وتعالى الطريق إلى الجنة محفوف بهما .. وكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن كنتم تريدون الجنة فلا بد أن تعملوا فى الحياة الدنيا على تهذيب أنفسكم وردعها عن شهواتها وغيبها وترويضها على عبادتى وتحمل المشقة فى سبيلى .. وإن أتبعتم الأهواء والشهوات فإن النار موعدهم .. يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ﴾ ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ، قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : أرجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد ، وقال :

أذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فانظر إليها ، فإذا هي يركب بعضها بعض ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : أرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد » (٧) .

الموت عبرة وعظة :

فالموت سلطان الله ومشيعته في خلقه الذي لا يهاب كبيرا ولا صغيرا .. ولا يرحم ضعيفا .. ولا فرق أمامه بين غنى أو فقير .. ولا عزيز أو حقير .. كل الناس أمام حقيقة الموت سواسية .

ومع أن الناس تؤمن بهذا الأمر إلا أنهم في غفلة ومجون .. ومع أن التذكير بالموت وما فيه من عبرة وعظة دائم ومستمر فلا يمر يوم من الأيام بل تمر ساعة واحدة إلا وذكر الموت على لسانك تحدث به الناس .. أو يضل إلى أسماعك قد تنقلته ألسنة الناس .. فلان مات بالأمس .. وابن فلان مات اليوم .. فلان هذا مات بسبب كذا وكذا .. وفلان مات فجأة .. وفلان هذا ترك لأهله بعد موته كذا وكذا وفلان غاش في حياته مسرفا فلما مات لم يترك لأهله شيئا .. فذكر الموت والأموات حديث لا ينقطع .

وعلى الرغم من ذلك فإن الناس تنسى أو قل تتناسى الموت وما فيه .. وذلك لأنهم أمنوا به شكلا ظاهرا ، ولم يتفكروا فيه كحقيقة واقعة .. أو أنهم يستبعدون تلك الحقيقة .

لذا نرى أحوالهم في هذه الحياة الدنيا .. تثير العجب حقا لأنهم أيقنوا أن الموت آت لا ريب فيه ولا يعملون له .. وأيقنوا أن الدنيا لا تدوم لأحد وأفنوا أنفسهم في طلبها وفي طلب المزيد منها .. والحرص عليها .. والحزن على ما فاتهم منها .. والفرح بما اكتنزوا من زينتها .

(٧) الحديث : رواه أبو داود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال لي صحيح .

روى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله
فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال : « كانت عبرا كلها ، عجبت
لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ،
عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب عجبته لمن رأى الدنيا وتقلبها ثم اطمأن
إليها ، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » (٨) .

وعن سهل بن سعيد الساعدى رضى الله عنه قال : مات رجل من أصحاب
النبي ﷺ فجعل أصحابه يثنون عليه ويذكرون من عبادته ورسول الله
سأكت ، فلما سكتوا قال رسول الله ﷺ : « هل كان يكثر ذكر الموت ؟
قالوا : لا ، قال : فهل كان يدع كثيرا مما يشتهى ؟ قالوا : لا ، قال :
« ما بلغ صاحبكم كثيرا مما تذهبون » (٩) .

وروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول
الله ﷺ على المنبر والناس حوله : « أيها الناس أستحيوا من الله حق الحياء »
فقال رجل يا رسول الله ، إنا لنستحي من الله تعالى فقال : « من كان منكم
مستحيا فلا يبيت ليلة إلا وأجله بين عينيه ، وليحفظ البطن وما وعى ،
والرأس وما حوى ، ويذكر الموت والبلى وليترك زينة الدنيا » (١٠) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحد
يموت إلا ندم » قالوا : وما ندامته يا رسول الله ؟ قال : « إن كان محسنا
ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع » (١١) .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله
ﷺ فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال
الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له

(٨) الحديث : رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٩) رواه : الطبرانى بإسناد حسن .

(١٠) الحديث : رواه الطبرانى فى الأوسط .

(١١) رواه : الترمذى والبيهقى فى الذهب .

وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا» (١٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتسم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (١٣) .

وعن عبد الله بن شداد أن نفرا من بنى عذرة آتوا النبي ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبي ﷺ : « من يكفلنهم » قال طلحة : أنا ، قال : فكانوا عند طلحة ، فبعث النبي ﷺ بعثا فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، ثم بعث بعثا فخرج فيه آخر فاستشهد ، ثم مات الثالث على فراشه قال طلحة : فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة ، فرأيت الميت على فراشه أمامهم ، ورأيت الذى استشهد أخيرا يليه ، ورأيت أولهم آخرهم ، قال فداخلى من ذلك ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك فقال : « وما أنكرت من ذلك ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمر في الإسلام لتسيحه وتكبيره وتهليله » (٣) .

ولما كان الموت كذلك كان جدير بالإنسان أن يكون أمله في الدنيا قصير وذكره للموت وما بعد الموت كبير .

قصر الأمل في الحياة الدنيا :

لقد أوصى سيدنا رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم بقصر الأمل في الحياة الدنيا .. وعدم الاغترار بزيتها وشهواتها .

يقول سيدنا رسول الله ﷺ لعبد الله ابن عمر : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ

(١٢) الحديث : رواه ابن ماجه .

(١٣) الحديث : رواه الحاكم .

(١٤) الحديث : رواه الإمام أحمد وأبو يعلى ورواهما رواية الصحيح .

من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدبرى ما أسمك غدا» (١٥) .

وروى الإمام على كرم الله وجهه ، أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان ، اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا » ثم قال : « الا إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا ان الدنيا قد ارتحلت مولية ألا ان الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا أنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ألا إنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل » (١٦) .

وقال أبو سعيد الخدرى اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر أن أسامة لطويل الأمل ، والذي نفسى بيده ما طرقت عيناي إلا ظننت شفى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أننى واضعه حتى أقبض ، ولا لقيت لقمة إلا ظننت أننى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت » ثم قال : « يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسى بيده أن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » (١٧) .

وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية فقال : « أيها الناس أما تستحيون من الله ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون » (١٨) .

(١٥) الحديث : رواه ابن حبان ورواه البخارى من حديث ابن عمر كن فى الدنيا كأنك غريب .

(١٦) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل وهو ضعيف .

(١٧) الحديث : رواه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية بسند ضعيف .

(١٨) الحديث رواه ابن أبى الدنيا .

وقال عبد الله بن مسعود : خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا الإنسان » للخط الذى فى الوسط « وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض » الخطوط التى حوله فتنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا « وذاك الأمل » يعنى الخط الخارج^(١٩) .

وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل » وفى رواية أخرى : « تشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر »^(٢٠) .

وقال الحسن قال رسول الله ﷺ : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : « قصرُوا من الأمل ، وثبتوا أجلكم بين أبصاركم .. وأستحيوا من الله حق الحياء »^(٢١) .

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل »^(٢٢) .

الناس فى ذكر الموت :

ولقد قسم الإمام الغزالي رحمه الله .. الناس فى ذكر الموت إلى : ثلاثة أصناف :

(١٩) الحديث : رواه الإمام البخارى .

(٢٠) رواه ابن أبى الدنيا ومسلم .

(٢١) رواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا .

(٢٢) الحديث رواه ابن أبى الدنيا وإسناده ضعيف .

فمن الناس من لا يذكر الموت إلا نادرا .. وإذا ذكره كرهه .. وذلك لأنهماكه في الدنيا وغروره بها وانشغاله بما فيها .. وهذا الصنف من الناس ذكره للموت .. يزدده من الله بعدا .. لأنه يكره لقاء الله .

وأما الصنف الثاني : فمن الناس من أقبل بوجهه على الله تعالى .. فتأب عما ينبغي ... فذكر الموت يزيده خشية وتأهبا .. واستعدادا ووفاء .. فهذا لا يكره الموت حبا في الدنيا وما فيها .. وإنما يكره الموت لقله زاده وعدم استعداده وهذه الكراهية .. ليست كراهية لقاء الله بل هو غير مذموم .. لأنه يريد الحياة للتأهب للموت والاستعداد له .. وذلك لأنه يحس أنه مقصر في جنب الله دائما .

وأما الصنف الثالث : فأولئك العارفون ... فالعارف يذكر الموت دائما لكونه موعدا للقاء الحبيب .. والمحب لا ينسى قط موعد حبيبه ومثل هذا العبد يستبطن محبة الموت ...

وروى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : اللهم ان كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى .. والسقم أحب إلى من الصحة .. والموت أحب إلى من الحياة .. فسهل على الموت حتى ألقاك .

فهذا الصنف من الناس قد وصل إلى مرتبة التفويض .. وهي أعلى المراتب .. أن يفوض العبد أمره إلى الله تعالى .. فلا يختار لنفسه إلا ما يختاره الله .

من خطب سيدنا رسول الله ﷺ في ذكر الموت :

قال عليه الصلاة والسلام : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد ، يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ،

ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﷺ قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم
الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ (٢٣) .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « يأأيها الناس ان لكم معالم فانتهاوا
إلى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ، وان العبد بين مخافتين :
بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقى لا يدري
ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته
ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، والذي نفس محمد بيده
ما بعد من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار » (٢٤، ٢٥) .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « يأأيها الناس كأن الموت فيها - يعنى
الدنيا - على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب وكان
الذى يشيع من الأموات سفر - أى مسافر - عما قليل إلينا راجعون ،
نيوتهم أجدثهم ، ونأكل من تراثهم كأنا مخلصون بعدهم ، نسينا كل
واعظة ، وأمنا كل جائحة - أى الآفة المهلكة - واتقوا الله حق ثقاته ،
واسعوا في مرضاته ، وأيقنوا من الدنيا بالفناء ، ومن الآخرة بالبقاء ،
وأعملوا لما بعد الموت ، فكأنكم بالدنيا لم تكن وبالأخرة لم تزل ، ألا وأن
من في الدنيا ضيف وما في يده عارية ، وان الضيف مرتحل ، والعارية
مردودة ، ألا وأن الدنيا عرض حاضر يأكل البر والفاجر ، والآخرة وعد
صدق يحكم فيها ملك قادر ، فرحم الله أمراً نظراً لنفسه ومهداً لرمسه ،
ما دام سنه مرخى وحبله على غاربه ملقى قبل أن ينفذ أجله وينقطع
عمله » .

عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فمن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال : إذا دخل النور القلب
أنفسخ وانشرح قالوا هل لذلك من علامة يعرف بها ؟

(٢٣) سورة مريم الآية : ٣٩ .

(٢٤) الحديث : رواه الإمام البخارى . (٢٥) الحديث : رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتسعى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » (٢٦) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا للموت فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي » (٢٧) .

وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا مات ولد العبد ، قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون نعم ، فيقول : هل قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة ، وسموه بيت الحمد » (٢٨) .

وكان سيدنا رسول الله يقول في دعائه :

« اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قومى فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك » (٢٩) .

ويروى أن سيدنا رسول الله ﷺ خرج إلى المسجد فإذا يقوم يتحدثون ويضحكون .. فقال : « أذكروا الموت .. أما والذي نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .

(٢٦) الحديث : رواه ابن جرير .

(٢٧) الحديث : متفق عليه .

(٢٨) الحديث : رواه الترمذى .

(٢٩) الحديث : رواه الترمذى .

أقوال الصالحين في ذكر الموت :

وجاء في كتاب نزهة الناظرين للشيخ عبيد الضرير .. أن يزيد الرقاشي (أحد الصالحين) كان يقول لنفسه : ويحك يا يزيد .. من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يرضى عنك بعد الموت ؟ ثم يقول : يا أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ .. من الموت موعده .. والقبر بيته .. والتراب فراشه .. والدود أنيسه .. وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر .. كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشيا عليه .

وقال أحد الصالحين : من أكثر من ذكر الموت .. أكرم بثلاثة أشياء .. تعجيل التوبة .. وقناعة القلب .. ونشاط العبادة .. ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء .. تسويف التوبة .. وترك الرضى بالكفاف .. والتكاسل عن العبادة .

وقال الحسن رحمه الله : فضح الموت الدنيا .. فلم يترك لذي لب فرحا وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت عنده الدنيا .. وهان عليه جميع ما فيها ... وقال أحد الصالحين : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم .. فاطلبوا نعيما لا موت فيه .

وقيل لحاتم الأصم رحمه الله : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح من أجله قريب .. وأمله بعيد .. والموت أمامه .. والقبر مسكنه .. وهو مع ذلك مطالب بثماني خصال : قيل : وما هن ؟ قال : الله تعالى يطالبني بالفرض .. والنبي بالسنة والنفس بالقوت .. والوالدان بالبر .. والملكان بصدق اللسان .. والقبر بالجسم .. والدود باللحم .. ومنكر ونكير بالحجة .. فهؤلاء غرمائي .. فكيف يصبح من كان على هذه الحالة ؟ « (٣٠) » .

(٣٠) كتاب نزهة الناظرين ص ٢١٧ ، ٢٨٨ .

ويروى أن العارف بالله - أبو حازم - رضى الله عنه .. دخل على أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك .. فقال له : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم الدنيا .. وخربتم الآخرة .. فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب .

قال : يا أبا حازم .. كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما المحسن : فكالغائب .. يأتي أهله فرحاً .. وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه خائفاً محزوناً .

ومرض الإمام الشافعي رضى الله عنه .. فدخل عليه رجل من أصحابه يعود في مرضه الذى مات فيه .. فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال الإمام رضى الله عنه : أصبحت عن الدنيا راحلاً .. وللإخوان مفارقاً .. ولسوء عملي ملاقياً ولكأس المنية شارباً .. وعلى ربي سبحانه وتعالى وارداً .. ولا أدري أروحي سائرة إلى الجنة فأهنيها .. أو إلى النار فأعزبها .. ثم أنشد هذه الأبيات :

ولما قسى قلبي وضائق مذاهبي جعلت الرجا منى لعفوك سلماً
تعاظمنى ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كأن عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبة له : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى غداً عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض .

وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلف بعدكم الباقون ؟

ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه في بطن صدع - أى شق - من الأرض

غير موسد ولا ممد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها سنن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كفه على وجهه وجعل يبكي حتى بليت دموعه لحيته .

وما عاد إلى مجلسه حتى مات فكانت هذه آخر خطبة له .

وقال رضى الله عنه : فهو خامس الخلفاء الراشدين - في خطبة له : إن الدنيا ليست بدار قراركم ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن - أى يرحل - ،

فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه .

إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، لأنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً .

وقال رضى الله عنه في خطبة أخرى :

إلكل سفر زادا لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقنسوا قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإن والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله يصبح بعد مسائه ، ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا .

وكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترأ ، وإنما تفرعين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة ، فأما من لا يداوى

كلما - جرح - إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرج .

أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسى، فتخسر صفقتى ، وتظهر عيبتى ، وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر ، الموازين فيه منصوبة .

لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت .

أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداهما .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى إحدى خطبه : أين الوضاعة الحسنة وجوههم ؟ المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟

أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور .

وقال عبد الله بن سميظ : سمعت أئى يقول : أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟

أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذاً قط من غير عُدة ؟ إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك ،

أبالصحة تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون ؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذ جاء لا يمنعك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك - أبناؤك - .

أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب ، وغصص ، وندامة على التفريط ، ثم يقال : رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت .

وقال أحد الصالحين : كلنا قد أيقن بالموت .. وما نرى له مستعد ..
وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملا .. وكلنا أيقن بالنار وما نرى لها خائفا
فماذا تفرحون ؟ وما عسيتم تنتظرون ؟ الموت أول وارد عليكم من أمر الله
بخير أو بشر .. فيا أخوتاه سيروا إلى الله سيرا جميلا .

ونزل الأمين جبريل عليه السلام ذات يوم على سيدنا رسول الله فقال
له : يا محمد عتش ما شئت .. فانك ميت .. وأعمل ما شئت .. فانك مجزى
به .. وأحب من شئت .. فانك مفارقة .. وأعلم بأن شرف المؤمن قيام
الليل .. وعزه : استغناؤه . عن الناس .

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر الغفاري : يا أبا ذر .. أخلص النية
فإن المولى عظيم .. وبادر بالعمل فإن الأجل قريب .. وجوده بالتحقيق فإن
الناقد بصير .. وأكثر الزاد فإن الطريق سحيق .. وأوثق السفينة فإن البحر
عميق (٣١) .

كيف نذكر الموت ؟

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين : أعلم
أن الموت هائل وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم
له .

ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة
الدنيا ، .

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت
الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة - صحراء
مهلكة - أو يركب البحر فإنه لا يفكر إلا فيه .

(٣١) كتاب نزهة الناظرين ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه .

وأنصح - أحسن - طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه - أصحابه - الذين مضوا قبله .. فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم ، وكيف أرموا نساءهم ويتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم منهما ، تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله العيش والبقاء ونسيانه للموت ، والتخداعه بمواتاة الأسباب - اقبالها عليه - وركونه إلى القوة والشباب .

وميله إلى الضحك واللهو ، وغفله عما بين يديه من الموت الزريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد انهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدير لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهرا ، وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه ، فأنكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء ، إما بالجنة وإما بالنار . فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم ، وغفلته كففتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم ، قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره .

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعونه في صدع - أى شق - من الأرض ، قد توسد التراب وخلف الأحابيق وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب .. حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب

عينه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ، ويتجافى عن دار الغرور ،
والأفالدكر بظاهر القلب وعذبة اللسان - أى طرفه - قليل الجدوى
فى التحذير والتنبه ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر
فى الحال أنه لا بد له من مفارقتة .

نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال :
والله لولا الموت لكنت بك مسرورا .

ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت الدنيا أعيننا ثم بكى بكاء
شديدا حتى أرتفع صوته (٣٢) .

وقيل يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم من
يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » (٣٣) .

وإذا كان الأمر كذلك فواجب على كل مسلم أن يبادروا إلى العمل
الصالح الذى يحب الله ويرضى .. وأن يحذروا آفة التأخير والركون إلى الدنيا
والاغترار بزيتها وزخارفها فتفتنهم فتنة لا فواق لها إلا على أسوار سقر
وما أدراك ما سقر ...

وهكذا كان سلفنا الصالح رضى الله عنهم فيقول عمر بن الخطاب رضى
الله عنه التؤدة فى كل شىء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة .

وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هى الأنفاس
لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم
الله امرؤ نظر إلى نفسه ، ويكنى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا ﴾ (٣٤) يعنى الأنفاس ، آخر العدد .. خروج نفسك ، آخر العدد ..
فراق أهلك ، آخر العدد .. دخولك فى قبرك ،

(٣٢) كتاب إحياء علوم الدين .

(٣٣) الحديث : رواه الترمذى .

(٣٤) سورة مريم الآية : ٨٤ .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداه .

وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه ، فقال : مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام ، وأحلنا وأياكم دار المقام .

هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم وأتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعه بهذه الآذان ، وتخرجوه عن هذه الآذان ، فإن من رأى محمدا ﷺ فقد رآه غاديا رائحا ، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا ، علام تفرحون ؟ أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا : رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ، ولزق بالأرض واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة ، وابتغى الرحمة حتى يأتي أجله وهو على ذلك (٣٥) .

(٣٥) الحديث : رواه ابن حبان في الثقات .

ذكر ملك الموت

ملك الموت هو (عزرائيل) عليه السلام وهو أحد الملائكة الأربعة الرؤساء .. وهو ملك الموت ورسوله وقابض جميع الأرواح بإذن الله ومشيعته .. بعد أن تستوفي كل نفس رزقها وينقضي أجلها .

وهو ملك هائل المنظر مفزع مرعب ولكن من رحمة الله سبحانه وتعالى أن هذا الملك يترفق بالمؤمن ولا سيما العبد الصالح المخلص فيأتيه في صورة حسنة .. ويجذب روحه في سهولة ويسر ويخاطبها بكلام حسن جميل فيقول لها « أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في جسد طيب أخرجي راضية مرضية وأبشري بروح وريحان وجنة نعيم ورب راض عنك غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج .. ولحكمة الله سبحانه وتعالى أيضا فإن هذا الملك يشتد على غير المؤمن ويقول لأرواحهم : أخرجي أيتها الروح أو النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، وأبشري بالحميم والغساق وآخر من شكله أزواج أخرجي ذميمة مقبوحة إلى غضب من الله وسخط » فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ .

وروى أن ملك الموت كان يأتي الناس ظاهرا فقد أخرج الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا فأق موسى في صورة آدمي فلطمه موسى فقأ عينه ، فأق ربه فقال : يارب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لشقت عينه قال : إذهب إلى عبدى فقل له : فيضع يده

على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة .. فآتاه .. فقال : موسى لملك الموت : ما بعد هذا ؟ قال : الموت ، قال : فالآن فشمه شمة فقبض روحه ، ورد الله على عزرائيل عينه .. فكان بعد ذلك يأتي الناس خفية » .

وروى عن عمر أنه قال : « إذا قبض ملك الموت روح المؤمن قام على عتبة الباب ولأهل البيت ضجة فمنهم المصاكة وجهها ، ومنهم الناشرة شعرها ، ومنهم الداعية بويلها ، فيقول ملك الموت عليه السلام : فقيم هذا الجزع ، فوالله ما أنقصت لأحد منكم عمرا ، ولا ذهبت لواحد منكم برزق ، ولا ظلمت أحدا منكم شيئا ، فإن كانت شكايته وسخطكم على فإني والله مأمور ، وإن كان ذلك على ميتكم فإنه في ذلك مقهور ، وإن كان ذلك على ربكم فأنتم به كفره ، وإني لي فيكم عودة ثم عودة ، فلو أنهم يرون مكانه أو يسمعون كلامه لزهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم » (٣٦) .

ويروى عن الخليل إبراهيم عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك قال : فأعرض عني ، فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو رجل أسود قائم منتن الرائحة أسود الثياب .. يخرج من منخاره لهب النار ودخان .. فغشي على إبراهيم عليه السلام فلما أفاق وقد عاد الملك إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه .. ثم قال الخليل إبراهيم عليه السلام : ياملك الموت هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم .. فأعرض ثم التفت .. فإذا هو شاب جميل الصورة وقد ذكر من حسنه وحسن ثيابه وطيب ريحه .. فقال ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند موته إلا صورتك كان حسبه .

ومن هذا الحديث يتضح لنا أن ملك الموت يتشكل في صورته على حسب منزلة الإنسان المقبوض .. ودرجة إيمان هذا العبد بالله سبحانه وتعالى فيأتي إلى الكافر في صورة بشعة مخيفة مفزعة مرعبة .. ويأتي إلى المؤمن

(٣٦) أخرجه أبو مطيع في اللؤلؤيات .

فى صورة حسنة جميلة تسر عينه وخاطره وتجعله مطمئنا.. وتشد من عزمه فى هذا الوقت القاتل وقت الرحيل والسفر .

روى أنه ما من ميت يموت حتى يرى ملكاه الكاتبان عمله .. فإن كان مطيعا قالاه : جزاك الله عنا خيرا .. فرب مجلس صدق أجلستنا .. وزب عمل صالح أحضرتنا .. وإن فاجرا .. قالاه : لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا .. ومن كلام قبيح أسمعنا .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة والنار » (٣٧) .

فملك الموت إذا أتى المحتضر قال له إن كان مؤمنا حقا : أبشر ياولى الله بالجنة وإن كان مسيئا فاجرا فاسقا كافرا .. قال له : أبشر ياعدو الله بالنار .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام ما لى لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال : ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هى صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب ابن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بشياب ليلبسها فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات ، وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب ، فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ فى منخره نفخة ، فملأه كبرا ، ثم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا ، فجاءه رجلا رث الهيئة ، فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته ، فقال : أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما ، قال : إن لى إليك حاجة ، قال : إصبر حتى أنزل ، قال : لا الآن فقهره على لجام دابته ، فقال : إذكرها ، قال : هو سر ، فأدنى له رأسه ، فساره وقال : أنا ملك الموت ، فتغير لون الملك ، واضطرب لسانه ، ثم قال : دعنى حتى أرجع إلى أهلى ، وأقضى حاجتى ، وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك

(٣٧) رواه ابن أبى الدنيا .

أبدا ، فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقي عبدا مؤمنا في تلك الحال .. فسلم عليه فرد عليه السلام فقال : إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك ، فقال : هات ، فساره وقال : أنا ملك الموت ، فقال : أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك فقال ملك الموت : أقض حاجتك التي خرجت لها ، فقال : ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال : فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال : تقدر على ذلك ؟ قال : نعم إني أمرت بذلك ؟ قال : فدعني حتى أتوضأ وأصلي ، ثم أقبض روحي وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد .

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : جمع رجل من بني إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبيه : أروني أصناف أموالى فأتى بشيء كثير من الخيل والإبل ، والرقيق ، وغيره ، فلما نظر إليها بكى تحسرا عليها ، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له : ما يبكيك ؟ فوالذي خولك (أعطاك) ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك ، قال : فالمهلة حتى أفرقه ، قال : هيهات إنقطعت عنك المهلة ، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه .

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال : إقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة ، قال : فإن العبد ليغرس الغراس ، وينكح الأزواج ، ويبني البنيان وأن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري .

وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالسا في منزله قد خلا ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فثار إليه فزعا مغضبا فقال له : من أنت ؟ ومن أدخلك على داري ؟ فقال : أما الذي أدخلني الدار فربها وأنا الذي لا يمنع مني الحجاب ، ولا أستعذن على الملوك ، ولا أخاف صولة المتصلتين ، ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ، ولا شيطان مرید ، قال : فسقط يده الجبار ، وأرتعد حتى سقط منكبا على

وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذا ملك الموت ، قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات انقطعت مدتك ، وانقطعت أنفاسك ، ونفذت ساعاتك ، فليس إلى تأخيرك سبيل ، قال : فإلى أين تذهب بي ؟ قال : إلى عملك الذى قدمته وإلى بيتك الذى مهدته ، قال : فإنى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا ، قال : فإلى لظى .. نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فمن بين صارخ وباك .

قال يزيد الرقاشى : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر .

الفصل الثاني سكرات الموت

- مقدمة .
- أحوال الناس في ساعة الرحيل .
- شدة سكرات الموت .
- شدة الشيطان على المحتضر .
- تلقين المحتضر .
- وفاة سيدنا رسول الله ﷺ .
- وفاة أبو بكر والخلفاء الراشدين من بعده .
- غسل الميت .
- كفن الميت .
- الصلاة على الميت .
- حمل الجنازة .

الفصل الثانى الاحتضار

مقدمة :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ (١) .

والاحتضار هو : الفترة القصيرة التى تسبق خروج الروح من الجسد .. وهى ما نسميها باللحظات الأخيرة .. أو النزع الأخير .. وفيها يعالج المحتضر سكرات الموت وغمراته .. فهو الآن على أهبة السفر إلى الله سبحانه وتعالى وهى لحظات هائلة وسعيدة .. على بعض الناس من ذوى الإيمان الصادق والأعمال الصالحة .. وتكون شاقة ومؤلمة جدا على بعض الناس وهؤلاء .. أغنياء عن التعريف .. لا ردهم الله من سفر .

هذه هى اللحظات الأخيرة .. وهى نهاية المطاف فى الحياة الدنيا .. وبداية رحلة البرزخ .. وهى هى النهاية المحتومة لكل حى مهما طال أجله ومن المعروف أن نهاية الشئ .. هى قمة الثمرة فيه .. فإذا كانت الحياة الدنيا هائلة سعيدة .. بعبادة الله الواحد القهار .. كانت هذه اللحظات أسعد اللحظات فيها .. وإذا كانت الدنيا .. شقية تعيسة .. بالبعد عن الله سبحانه وتعالى وعن ذكره وعبادته .. كانت هذه اللحظات أشقى وأتعس .

(١) سورة ق الآية : ١٩ .

فإذا كانت الحياة الدنيا .. أو كان الإنسان طوال حياته هذه قد آمن بالله ولم يشرك به أحدا .. وكان لهذا الإيمان الصادق .. عنوان مرتبط به .. ومظهر مترتب عليه من العمل الصالح كان هذا الإنسان في لحظاته الأخيرة أسعد حالا .. أنه يرحل عن دار الامتحان والبلاء إلى دار المقامة والسلام إلى جوار ربه الكريم المنان .. أما إذا كان غير ذلك .. قد تنازعت .. الأهواء والشياطين وارتكب من الآثام ما لا يعد ولا يحصى .. ولم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى بالتوبة النصوح .. كان هذا الإنسان في لحظاته الأخيرة أشقى من في الأرض جميعا .. قد اجتمعت عليه كل هموم الدنيا وأحزانها ويكون في كوب ما بعده كرب .. فلقد اجتمع عليه ثلاث : هم وغم وكرب عظيم لو اجتمعوا على جبل لدكوه .

في هذه اللحظات الأخيرة يكشف الله سبحانه وتعالى .. سرا من الأسرار التي لا يعرفها أحد قط .. ليكون موعظة للمتقين .. وعبرة للناظرين .. فالناظر إلى المحتضر نظرة تأمل وامعان في هذه اللحظات يرى على وجهه من العلامات ما يعرف منها معرفة لاشك فيها .. عما إذا كان هذا المحتضر محسنا في حياته كريما في مماته .. أم أنه كان سيئا في حياته تعسا في مماته .

أحوال الناس في ساعة الرحيل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب :

فالمحسن يظهر إحسانه على وجهه في هذه اللحظات .. بشرا واستبشارا .. ويسرا في سكراته وغمراته .. وهذا يدل على حسن المنقلب . أما المسيء .. فتظهر إساءته على وجهه في هذه اللحظات .. فيكفهر وجهه ويذبد .. وتسمع له خوار كخوار الحمار ... وهذا يدل على سوء المنقلب .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين ، فأما إن كان من المقربين ، فروح

وريجان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب
اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ،
إن هذا هو حق اليقين ، فسبح بسم ربك العظيم ﴿٢﴾ .

فهذه يأخى سكرات الموت وغمراته .. وفيها يكشف الله سبحانه
وتعالى سرا من أسرار عبيده .. بين الإحسان والإساءة .. ليكون عبرة وعظة
لنا .. فإذا كان الموت نهاية المحتضر في الحياة الدنيا .. وبداية مرحلة أخرى له
فانه عبرة وعظة لنا نحن الأحياء الذين ننظر إليه في هذه الساعة .. فكل ذى
عقل رشيد ورأى سديد .. يتفكر في نفسه .. فلا بد أن له يوما كهذا اليوم ..
ولا بد أن له ساعة كهذه الساعة المؤلمة الرهيبة .. ولا بد له من رقدة كهذه
الرقدة ... ويومه هذا سوف يأتيه حتما ويكشف الله فيه سره .. ذلك السر
الذى ستره عليه طوال حياته .. ويكشف عن عنوان مصيره في هذه
اللحظات .. ليكون عبرة وعظة لغيره من جنسه .

فهل يستوى من هو في روح وريجان وجنة نعيم .. مع من هو في نزل
من حميم ؟ وهل يستوى حال من جاءت إليهم البشارة بجنة النعيم .. بمن جاءتهم
بالحميم ؟

قال سيدنا رسول الله ﷺ : « أرقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح
جبينه ، وزفت عيناه ، ويبست شفتاه فهو من رحمة الله تعالى وقد نزلت
به » (٣) .

هذا هو حال الفريق الأول .. أما حال الفريق الثانى فتراه في حديث ..
أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .. عند وفاة سيدنا رسول الله
ﷺ ... قالت : « قمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثدى ..
وأمسكت بصدره .. وجعل يغمى عليه .. وجهته ترشح عرقا .. ما رأيت

(٢) سورة الواقعة الآية : ٨٣ وما بعدها .

(٣) الحديث : رواه الترمذى في كتاب نوادر الأصول .

من إنسان قط أطيب منه .. وجعلت أرسل ذلك العرق .. وما وجدت رائحة شيء قط أطيب منه .. فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي .. ما تلقى جبهتك من العرق والرشح فقال : ياعائشة .. إن نفس المؤمن تخرج بالرشح .. ونفس الكافر تخرج من شذقيه كنفس الحمار « (٤) .

وسئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الموت وشدته فقال : ان أهون الموت .. بمنزلة حسكة في صوف .. فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف ؟ « (٥) .

ودخل عليه الصلاة والسلام على مريض فقال : « إني أعلم ما يلقي .. فما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته » (٦) .

وروى أن الخليل إبراهيم لما مات قال الله تعالى : كيف وجدت الموت يا خليلي ؟ فقال : كسفود جعل في صوف رطب .. ثم جذب .. فقال الله : أما أنا قد هونا عليك « (٧) .

وروى أن سيدنا محمد ﷺ دخل على شاب وهو في سكرات الموت .. فقال له : كيف تجددك ؟ قال : أرجو الله .. وأخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه .. وأمنه من خوف « (٨) .

روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام « ياابن عمران حبيبي إلى عبادي .. وذكرهم نعمي عليهم .. وإحساني إليهم .. فقال موسى عليه السلام : الهى هذه رحمتك للأحياء .. فما الذى أعددت للأموات ؟ فأوحى الله إليه : ياابن عمران لو سألت أهل القبور .. وأذنت لهم في جوابك

(٤) الحديث : رواه الإمام البخارى .

(٥) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا .

(٦) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا .

(٧) ذكره الإمام الغزالي في الإحياء .

(٨) الحديث : رواه الترمذى بسند حسن .

لأخبروك .. أن لطفى بهم بعد موتهم أعظم من لطفى بهم فى حياتهم يا ابن
عمران .. لم أقطع عنهم رحمتى وهم أحياء يرزقون .. فكيف أقطعها عنهم وهم
تحت الثرى مقبرون ؟ يا ابن عمران كم عبد عصانى طوال عمره .. فلما كان
عند موته لم أنظر إلى تمرده وجهله .. ونظرت إلى ضعفه وذله .. فألهمته
توحيدى .. وأوقفته على باى .. لينجو من سطوتى وعذابى .

فهل لك يا أخى فيمن سبق العبرة والعظة ؟ .. فوالله لقد رأيت مصرعا
انفطر له قلبى .. وأرتعدت من هوله أوصالى .. وتحجرت منه مدامعى
وأحسست بضعفى وذلى وانكسارى .. وهذا المصرع الذى رأيت هو الذى
دفعنى إلى تحقيق هذا البحث .

ذهبت ذات يوم لأعود مريضا .. وكان رجلا مقيما للفرائض ويتسم
بالصلاح ذلك هو الظاهر الذى نستطيع أن نحكم عليه به .. أما الباطن فالحكم
فيه لله عالم الغيب والشهادة .

دخلت البيت فوجدت أهله ييكون .. فى حسرة وألم .. وترى على
الوجوه مسحة من جزع وأبصارها زائغة .. فظننت أول الأمر أنه قد مات
فقلت : أمر الله ومشيتته .. ومشيتته سبحانه وتعالى نافذة وهو الفعال
لما يريد ... فقليل : ياليتته قد مات .. ندعو الله أن يتولاه برحمته .

أناس ياذا العقل .. ييكون فى وجل وفى جزع عظيم .. ليس من أجله
أو مخافة فراقه .. ولكن اشفاقا عليه .. وحزنا على ما يلاقيه فى سكرات
الموت .. من كرب شديد .. حتى أنهم يدعون الله أن يعجل
بموته .. فيستريحوا من هذا المنظر المؤلم الرهيب .. أهله مشفقون عليه
يستعجلون الاماته فقلت : يانفسى أن لك يوما كهذا اليوم .. ولك ساعة
كهذه الساعة .. فقدمى لهذا الموعد ... ما يجعل الأهل والخلان ييكون ..
خوف الفراق .. ولا ييكون اشفاقا من الخوار والذبد .. فدعوت الله سبحانه
وتعالى : « اللهم إنك سترتنى فى حياتى فاسترنى فى سكراتى » .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله : لو لم يكن بين يدي ابن آدم .. سوى
سكرات الموت لكان جديرا بأن لا يهنأ له عيش .. وحقيق بأن يطول فيه تأمله
ويحسن له استعدادة وتأهبه .

وقال بعض الحكماء : كرب بيد سواك .. لا تدري متى يغشاك .
وقال لقمان لابنه : يا بني أمر لا تدري متى يلقاك .. أستعد له قبل
أن يفجأك .

وقال الإمام الغزالي : أعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها
إلا من ذاقها .. ومن ذاقها فارقنا ولم يصفها لنا .. ومن لم يذوقها فأنما يعرفها
بالقياس على الآلام التي أدركها .. أو بالاستدلال بأحوال الموتي إذا شاهدوها .
أما القياس : فبأن يعلم أن الآلام إنما يصل إلى الروح منها شيء قليل وأما
الموت فهو ألم في نفس الروح .. وشدته في جميع الأعضاء .. فما أعظمه
من ألم .

وأما الاستدلال بأحوال الموتي : ألم نرى إلى المختضر وقد اشتد كربيه وأنه
لم ينقطع صياحه وصوته .. إلا لشدة ألمه وكربيه .. وقد تصاعد إلى قلبه ..
واستغرق جميع أعضائه .. فهد منه كل قوة فلم يبق له إلا الاستغاثة أما العقل
فقد طغى عليه الألم .. واللسان : قد أبكمه .. وأما الأطراف قد أضعفها ..
يود لو قدر على الاستراحة بالأنين - والصياح والاستغاثة . ولكنه لا يقدر
على ذلك .. فإن بقيت منه من قوة .. سمعت له عند نزع الروح وجذبها ...
خوارا .. وغرغرة .. في حلقة صدره .. وقد تغير لونه وأريد فتنتزع الروح
من كل عرق من عروقه كل على حياله .. ثم يموت كل من أعضائه .. فتبرد
أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه .. ولكل عضو سكرة وحسرة حتى يبلغ بها
إلى الحلقوم وعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب
التوبة .. لأن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « تقبل توبة العبد ما لم
يغرغر » (٩) .

(٩) الحديث : رواه الترمذي وابن ماجه .

أخى هذه نهاية الحياة الدنيا .. فى ساعة الرحيل .. فاحتر لنفسك ما تشاء ففى هذه الساعة .. التى هى ساعة الرحيل عن الدنيا .. والسفر إلى الآخرة .. ينقسم الناس فيها إلى فريقين ..

فأما الفريق الأول : وهم الذين آمنوا ثم اهتدوا وعملوا الصالحات .. فلما وافتهم ساعة الرحيل .. تنزلت عليهم الملائكة من السماء .. تواسيهم وتشد من أزرهم وتبشرهم فتقول لهم ﴿ لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ فهم فى رحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء .. فى روح وريحان وجنة نعيم .

وأما الفريق الثانى : وهم الذين عاشوا فى هذه الحياة الدنيا .. ولم يقدموا لأنفسهم .. ولم يعملوا لقاء يومهم هذا .. واتبعوا هوى النفس وساروا وراء الشهوات .. وألهتهم زينة الحياة الدنيا عن ذكر الله ... فلما وافتهم ساعة الرحيل .. كانوا فى سكرات رهيبة .. وغمرات مؤلمة .. يجد نفسه وحيدا فريدا .. ولا يجد من يواسيه ولا من يشد من أزره .. حتى أهله الذين يضيجون بالبكاء من حوله .. لا يكون خوف فراقه ولكن يكون اشفاقا عليه .. واستعجالا لموته .. فما بالك بمعاملة الملائكة له .. وهو العاصى لله الخارج عن أمره .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : كم شاهد الناس من هذا عبرا ... والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

فإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته .. قد تمكن منه الشيطان واستعمله فيما يغضب الله .. وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى .. فكيف الظن به عند سقوط قواه .. واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع الأخير ؟ وقد جمع له الشيطان كل قوته وهمته .. لينال منه فرصته الأخيرة .. فإن ذلك آخر العمل .. فأقوى ما يكون عليه الشيطان فى ذلك الوقت .. وأضعف ما يكون هو فى تلك الحالة .. وهنا ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل ما يشاء ﴿١٠﴾ ..
فكيف يوفق بحسن الخاتمة... من غفل قلبه ولسانه عن ذكر الله ؟ وأتبع هواه
وكان أمره فرطاً ؟ .. متعبداً لهواه أسيراً لشهواته .. ولسانه يلبث عن ذكره
واشتغل بمعصيته وكما قيل :

يا آمنة مع قبح الفعل منه .. أهل	آتاك توقيع آمن أنت تملكه ؟
جمعت شيئين آمنة واتباع هوى	هذا وإحداهما في المرأ تهلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء فيه زهدك	في دار البقاء بعيش سوف تتركه

فهل يستوى ذلك المؤمن الذي استنار بنور الحق الإلهي .. واتخذ الرحمن
خليلاً وأنيساً .. بذلك الفاسق الذي اتخذ الشيطان خليلاً وأنيساً فإذا أصبح
بطلعته حياه .. وقال : فديت من قرين .. لا يفلح في دنيا ولا في آخره .. ثم
يقول له كما قيل :

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء فأننى وأنت جميعاً في شقاء وهوان

وقال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له
قرين .. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون .. حتى إذا
جاءنا قلنا : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (١١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة أنهم
اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ (١٢) .

فهناك عباد آمنوا وأتقوا .. تنزل عليهم الملائكة .. في هذه اللحظات
الحرجة .. تبشرهم وتشد من أزهرهم وتواسيهم وتخفف عنهم . قال تعالى :

(١٠) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(١١) سورة الزخرف الآيات ٣٦ - ٣٨ .

(١٢) سورة الأعراف : ٣٠ .

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون .. لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ (١٣) .

وقال تعالى : ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم﴾ (١٤) .

وقال تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ (١٥) .
وهناك آخرون .. ينفطر القلب من هول ما هم فيه ومما يلقونه في هذه الساعة المؤلمة الرهيبة .. فهم في هول من الموت وفي كربه وغمراته .. يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا .. لا يستون﴾ (١٦) .

فملك الموت ينزع الروح نزعا .. كما ينزع السفود من الصوف المبلول .. والروح تحاول الفرار منه .. وملائكة العذاب تكره الروح على الخروج .. وتلقاهم بالاهانة .. فتضرب منهم الوجوه والأدبار في قسوة بالغة

قال تعالى : ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وإن الله ليس بظلام للعبيد﴾ (١٧) وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات

(١٣) سورة يونس الآيات ٦٢ إلى ٦٤ .

(١٤) سورة التوبة الآيات ٢٠ : ٢٣ .

(١٥) سورة فصلت الآية ٣٠ .

(١٦) سورة السجدة الآية : ١٨ .

(١٧) سورة الأنفال الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴿١٨﴾ .

مشهد رهيب .. وقد كشف الله عنه الحجاب في ساعة الرحيل .. فإذا به يرى الملائكة أمامه .. ملك الموت أسود الوجه .. منتن الريح .. قبيح المنظر .. يملأ أقسى القلوب رعبا وفزعاً .. ينزع الروح انتزاعاً .. بلا رحمة ولا هوادة وملائكة العذاب .. لا يمهلونه وإنما يزعمونه بطلب روحه .. وأيديهم تستعجل الإماته بالضرب والإهانة والإكراه .

شدة سكرات الموت :

روى أن سيدنا عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحوارين أدعو الله تعالى أن يهون على هذه السكره ، فقد خفت الموت مخافة أقوى من خوفاً من الموت على الموت .

وروى أن نفرا من بنى إسرائيل مروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتكم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ، فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود ، قد خرج من قبر من القبور ، فقال : يا قوم ما أردتم منى ، لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وقال عائشة رضى الله عنها : لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ .

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « اللهم أنك تأخذ الروح من بين العصب والقلب والأنامل ، اللهم فأعنى على الموت وهونه على » ﴿١٩﴾ .

(١٨) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

(١٩) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت وهو معضل .

وعن الحسن : أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته. وألمه فقال :
« هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف » (٢٠) .

وسئل ﷺ عن الموت وشدته فقال : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة
في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف » وقد سبق .

وقال شداد ابن أوس : الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن
وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلى بالقدر ، ولو أن
الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما أنتفعوا بعيش وما لذوا بنوم .

وعن زيد ابن أسلم عن أبيه قال : إذ بقى على المؤمن من درجاته شيء لم
يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليلبغ بسكرات الموت وكربه درجاته في الجنة .

وإذا كان للكافر معروف لم يجزى به ، هون عليه في الموت ليستكمل
ثواب معروفه ، فيصير إلى النار .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « إن العبد ليعالج كرب الموت
وسكرات الموت وأن مفاصله يسلم بعضها على بعض ، تقول عليك السلام
تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة » (٢١) .

ويقول الإمام المحاسبى رضى الله عنه في كتابه التوهم : فتوهم نفسك
وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم
نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه ، وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ
الملك يجذب روحك من قدماك ، فوجدت ألم جذبه من أسفل قدماك ، ثم
تدرك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطت
من أسفلك متصاعدا إلى أعلاك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام
الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز

(٢٠) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢١) كتاب التوهم ص ١ : ٣ .

وجل بالغضب أو الرضى ، وقد علمت أنه لا محيص دون أن تسمع إحدى
البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فيينا أنت في كربك وغمك وألم
الموت وسكراته وشدة حزنك لارتقابك لإحدى البشريين ، إذا نظرت
إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن صورة أو بأقبحها ، ونظرت إليه ماداً
يداه إلى فيك ليقبض روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك
وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفاجأك من البشرى منه إذا
سمعت صوته بنعمته أبشر ياولى الله برضى الله وثوابه أو أبشر ياعدو الله بغضبه
وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك وتطمئن إلى
الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل اليأس قلبك وينقطع من الله عز
وجل رجائك وأملك .. فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن .. أو الفرح والسرور
قلبك حين انقضت من الدنيا مدتك وانقطع منها أثارك وحملت إلى دار
من سلف من الأمم قبلك

شدة الشيطان على الإنسان في ساعة الرحيل ووجوب تلقين المحتضر :

في حالة الاحتضار يكون الإنسان أضعف ما يكون في حياته الدنيا كلها
وفي نفس الوقت يكون الشيطان عليه أقوى وأشد ما يكون ، لأن هذه الساعة
هى الساعة الأخيرة للعبد في الحياة الدنيا وهى الفرصة الأخيرة أيضاً أمام إبليس
اللعين لغواية هذا العبد المحتضر واضلاله عن السبيل ، فيستعمل معه كل قوته
وكل حيله ويستنفر عليه كل أعوانه ليشدوا عليه وهو في منتهى الضعف في كل
شئ فهنا في اللحظات الرهيبة المؤلمة ، وفي هذا الوقت العصيب يأقى إبليس
اللعين فيتمثل أمام المحتضر ، ومعه شيطان آخر بصور والديه ، قيل أن :
أحدهما يكون عن يمينه والآخر عن شماله .

فالذى عن يمينه يكون على صفة أبيه فيقول له : « يابنى أنى شفيقا ،
ولك محبا ولكن مت على دين النصارى وهو خير الأديان » .

والذى عن شماله يكون على صورة أمه يقول له : « يا بنى كان بطنى لك وعاء ، وثدى لك سقاء ، وفخذى لك وطاء ، ولكن مت على دين اليهود ، وهو خير الأديان » .

وذكر الإمام الغزالى : أن الشياطين يأتون المحتضر على صفة أبويه فى زى يهود ونصارى حتى يعرضوا عليه كل ملة .

وروى أن لابلis فتن كثيرة إذا أنه يأتى للمؤمن المحتضر فى حالة النزع بقربة خضراء فيها ماء بارد وهو فى كرب شديد ، وكبده قد احترق من شدة العطش فيقول له اللعين « قل كذا وكذا حتى أسقيك - أى أنه يمنيّه بالماء لأغوائه واضلاله ، ويتحول من جهة إلى أخرى ، ويريه الماء » فمن كان من أهل السعادة ثبتته الله بالقول الثابت كما ذكرنا من قبل ، ومن كان من أهل الشقاء والتعاسه اتبع الشيطان .

وروى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : « أحضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة فإن الحليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع وان الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع » (٢٢)

ولهذا أوصى سيدنا رسول الله ﷺ بتلقين المحتضر بقول لا إله إلا الله .. فقال عليه الصلاة والسلام : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنه ليس مسلم يقولها عند الموت إلا أنجته من النار » (٢٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢٤) .

ولا يشدد عليه فى التلقين مخافة أن ينطق بكلام غير لائق ، ويقرأ عنده

(٢٢) الحديث : رواه أبو نعيم .

(٢٣) الحديث : أخرجه الجماعة إلا البخارى .

(٢٤) الحديث : رواه الإمام أحمد والحاكم .

من سورة الرعد وما تيسر من سورة (يس) لقوله عليه الصلاة والسلام :
« اقرأوا على موتاكم يس » .

ويسن توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن متى أمكن ذلك وليقل من كان عنده خيرا لأن الملائكة يحضرون في هذه الساعة ، ويؤمنون على ذلك .

فقد روى عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبي فقلت : يا رسول الله : « إن أبا سلمة قد مات » قال : قولي : « اللهم اغفر لي ، وأعقبني منه عقبى حسنة » فقلت : « فأعقبني الله منه خيرا لي منه محمد ﷺ » (٢٥) .

وفاة رسول الله ﷺ :

قال الإمام الغزالي رحمه الله :

أعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيا وميتا ، وفعلا وقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونبيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه .
فأنظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟

وهلى أخره لحظة بعد حضرة منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن . فأشدت مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه وأضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضر ، وأنتحب لشدة حاله

(٢٥) الحديث : رواه الإمام مسلم .

من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدوره ؟ وهل راقب الملك فيه أهلا وعشرا ؟ وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيئات ، بل أمثال ما كان به مأمورا ، واتبع ما وجدته في اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والخوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لانعتبر به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالناس لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وأمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ؟ لعلنا نظن أننا مخلصون ، أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيئات هيئات ، بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون . فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٢٦) .

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين ثم أنظر إلى سيد المرسلين ، فانه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين ، واعتبر كيف كان كربته عند فراق الدنيا ، وكيف أشد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال : ﴿ مرحبا بكم حياكم الله ، آوأم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله اني لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى

والى الكأس الأوفى فاقرؤا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى
السلام ورحمة الله ﴿ (٢٧) ٠

وروى أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته : « من لأمتى
بعدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لا أخذ له فى أمته وبشره
بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، فإن الجنة
محرومة على الأمم حتى تدخلها أمته . قال : « الآن قرت عيني » ﴿ (٢٨) .

وقالت عائشة رضى الله عنها أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب
من سبعة آبار . ففعلنا ذلك . فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس ، وأستغفر
لأهل أحد . ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال : « أما بعد يامعشر المهاجرين
فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار على هيئتها التى هى عليها اليوم
وإن الأنصار عيبتى التى آويت إليها فأكرموا كريمهم » يعنى محسنهم
وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم قال : إن عبداً تُخير بين الدنيا وبين ما عند الله
فاختار ما عند الله « فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظن أنه يريد نفسه ،
فقال النبى ﷺ : « على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب الشوارع
فى المساجد إلا باب أبى بكر فإنى لا أعلم امرؤاً أفضل عندى فى الصلحة
من أبى بكر » ﴿ (٢٩) .

قالت عائشة رضى الله عنها : فقبض ﷺ فى بيتى ، وفى يومى ، وبين
سحرى ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل على أخى .. عبد
الرحمن وبيده سواك ، فجعل ينظر إليه ، فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له :
آخذه لك ؟ فأوماً أى نعم ، فناولته إياه ، فأدخله فى فيه ، فأشدد عليه فقلت
ألينه لك ؟ فأوماً برأسه أى نعم ، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل
يدخل فيها يده ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » ثم نصب يده
يقول « الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى » فقلت إذا والله لا يختارنا ﴿ (٣٠) .

(٢٩) الحديث رواه الدرامى وهو ضعيف .

(٢٧) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢٨) رواه الصبرانى من حديث جابر وابن عباس . (٣٠) الحديث : متفق عليه .

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال :

لما رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ ، يزداد ثقلاً ، أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك ، ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثله ، فمد يده وقال : ها فتناولوه ، فقال : « ما تقولون ؟ » قالوا نقول : نخشى أن تموت ، وتصيح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على علي والفضل ، والعباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنا عليه وقال : « يا أيها الناس أنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وتنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنمي إليكم أنفسكم ، هل خلد نبي قبل فيمن بعث فأخلد فيكم ألا اني لاحق بربي وأنكم لاحقون به ، وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ﴾ إلى آخرها » وإن تجرى بأذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر علي أستعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لعجل أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض . وتقطعوا أرحامكم ﴾ وأوصيكم بالأنصار خيراً فأنهم الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ؟ ، ألم يوسعوا عليكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ، ولا تسأثروا عليهم ، ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون لي ألا وإن موعدكم الجحوز حوضي أعرض مما بين بصرة الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد بياضاً من اللبن وألبن من الزبد وأحلى من الشهد من شرب منه لم يظماً أبداً حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ألا فمن أحب أن يردّه عليّ غداً فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي » فقال العباس : يابني الله ، أوصي بقريش فقال : إنما أوصي بهذا الأمر قریشا والناس تبع لقریش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم ،

فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يأبىها الناس إن الذنوب تغير النعم
وتبدل القسم ، فإذا برَّ الناس برهم أثمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله
تعالى : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين ، بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ (٣١) .

وروى بن مسعود رضي الله تعالى عنه ، أن النبي ﷺ قال لأبي بكر
رضي الله عنه : « سل يا أبا بكر : فقال : يارسول الله دنى الأجل ؟ فقال :
« قد دنى الأجل ودلى » فقال : ليهنئك يابى الله من عند الله ، فليت شعري
عن منقلبنا فقال : « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس
الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهني » فقال : يابى
الله ، من يلي غسلك ؟ قال : « رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى » قال :
فقيم نكفئك فقال : « في ثيابي هذه وفي حلة يمنية وفي بياض مصر » فقال : كيف
الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى - ثم قال : « مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن
نبيكم خيرا إذا . غسلتهموني وكفنتهموني فضعوني على سريرى في بيتي هذا على
شفير قبري ثم أخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلى على الله عز وجل ﴿ هو
الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ (٣٢) ثم يؤذن للملائكة في الصلاة على فأول
من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك
الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعهم صلى الله عليهم أجمعين ثم أنتم
فأدخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرا زمرا وسلموا تسليما ولا تؤذوني
بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر
النساء ثم زمر الصبيان » قال : فمن يدخلك القبر ؟ قال : « زمر من أهل بيتي
الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونها وهم يرونكم ، قوموا فأدوا عني إلى
من بعدى » (٣٣) .

وقال عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله
ﷺ ، رأوا منه خفة في أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم

(٣١) سورة الأنعام الآية : ١٢٩ .

(٣٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٣ .

(٣٣) الحديث : رواه ابن سعد في الطبقات بإسناد ضعيف .

وحوائجهم مستبشرين ، وأنخلوا رسول الله ﷺ بالنساء ، فبينما نحن على ذلك ، لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « أخرجني عنى ، هذا الملك يستأذن على » فخرج من في البيت غيرى ، ورأسه في حجرى ، فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ، ثم أنه دعانى ، فأعاد رأسه في حجرى ، وقال للنسوة « أدخلن » فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام . فقال رسول الله ﷺ : « أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بأذن فإن لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك فقلت أكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل » فقال عائشة رضى الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنا ضربنا بصاخرة (الداهية) ما نحير إليه شىء ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبته ملأت أجوافنا قالت : وجاء جبريل في ساعته ، فسلم فعرفت حسه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجددك ؟ وهو أعلم بالذى تجدد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ، وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك ، فقال : « أجدنى وجعا » فقال : أبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك ، فقال : « يا جبريل إن ملك الموت استأذن على » وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك يتم شرفك ، وهو إليك مشتاق ، قال : « فلا تبرح إذا حتى يحبىء » وأذن للنساء فقال : « يافاطمة أدنى » فأكبت عليه ، فناجاها ، فعرفت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام ، ثم قال : « أدنى منى رأسك » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك ، ولا تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجبا ، فسألته بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال : « أنى ميت اليوم » فبكيت ، ثم قال : أنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يعجلك معى » فضحكهم وأدنت ابنها منه ، فشهما قالت : وجاء ملك الموت ، فسلم

واستأذن ، فأذن له فقال الملك : ما تأمرني يا محمد ؟ قال : « ألحقني بربي الآن » فقال : بلى من يومك هذا ، أما أن ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهاني عن الدخول على أحد إلا بأذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك ، وخرج ، قالت : وجاء جبريل فقال : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوى الوحي وطويت الدنيا ، وما كان لي فيها حاجة غيرك ، وما لي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي ، والذي بعث محمدا بالحق ، ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجدنا واشفاقنا ، قالت : فقمتم إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثدي وأمسكت بصدره ، وجعل يغمي عليه حتى يغلب ، وجهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق : بأى أنت وأمى ونفسي وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح فقال : « يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدة كنفس الحمار » ، فعند ذلك ارتعنا ، وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جائنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلى أبى ، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يحىء أحد ، وأما صدهم الله عنه لأن ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمى عليه قال : « بل الرفيق الأعلى » كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال : « الصلاة الصلاة أنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة » كان يوصى بها حتى مات وهو يقول « الصلاة الصلاة » (٣٤) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة ، وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير كلام ، بقى آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون ، فكان عمر

(٣٤) رواه الطبراني في الكبير .

ابن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس ، فخرج عمر على الناس فكذب بموته ، وقال : أن رسول الله ﷺ لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت ، أنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى ، وهو آتيكم - وفي رواية - أنه قال : يأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله فإنه لم يمت ، والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفى هذا ، وأما على فإنه أقعد يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندرى كيف نغسل رسول الله ﷺ ؟ أنجرده من ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نغسله بثيابه ؟ قالت : فأرس الله عليهم النوم ، حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ، ثم قال قائل : لا يدرى من هو : غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك ، فغسل رسول الله ﷺ في قميصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن ، وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا : لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه ، فأقررناه ، فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ، ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب حتى نفرغ منه ، وأن معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخاء ، ويصوت بنا أرفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون .

أخى هكذا كانت وفاة سيدنا رسول الله ﷺ وأنها لنا لعبرة وعظة توفي سيدنا رسول الله ﷺ بعد أن بلغ الأمانة ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وترك في الناس ما أن تمسكوا به لا يضلوا أبدا ، كتاب الله وسنته ﷺ .

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : والخلفاء الراشدين من بعده :

لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، روى أنه قال : انظروا ثوبى هذين ، فاغسلوهما وكفنوني بهما ، فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت .

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها عند موته .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر رضي الله عنه : ذاك رسول الله ﷺ ، ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوك لك طيبا ينظر إليك ؟ قال : نظر إلى طيبى ، وقال : إني فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه يعوده ، فقال : يا أبا بكر ، أوصنا ، فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بلاغك وأعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله ، فلا تحقرن الله في ذمته فيكبت في النار على وجهك .

وروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر بن الخطاب فقال له : إني أوصيك بوصية إن أنت قبلتها منى ، إن الله عز وجل حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، إن الله عز وجل حقا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة ، باتباعهم الحق في الدنيا ، وثقل ذلك عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلًا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة ، باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم في الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفًا ، إنما نزلت آية الرجاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرجاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا ، فلا ترغب رغبة فتتمنى على الله ما ليس لك ، ولا ترهب فيها رهبة تلقى فيها ما بيدك .

إنما ذكر الله أهل النار بسوء أعمالهم .. ورد عليهم ما كان من حسن فإذا ذكرتهم قلت أنى : لأخشى أن أكون من هؤلاء .

ولإنما ذكر أهل الجنة .. بأحسن أعمالهم .. لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء .. فإذا ذكرتهم قلت : أى من أعمالهم أعمل ؟

فإن حفظت وصيتى .. فلا يكن غائب أحب إليك من الموت .. وهو نازل بك .. وإن ضيعت وصيتى .. فلا يكن غائب أكره إليك من الموت .. ولست تعجزه .

وقيل أنه لما احتضر رضى الله عنه : جاءت أم المؤمنين رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يفنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
فكشف عن وجهه .. وقال .. ليس كذلك ولكن ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ (٣٥) .

وروى أنه لما طعن الفاروق عمر رضى الله عنه .. وكان فى مرضه الذى مات فيه وقد استمر ثلاثة أيام .. قال ابن عمر رضى الله عنهما : كان عمر فى حجرى فقال : ضع خدى على الأرض .. فقلت : وما عليك .. كان فى حجرى أم على الأرض . وظننت أن ذلك تبرم منه أفعل .. فقال : ضع خدى بالأرض لا أم لك .. ويل أُمى إن لم يرحمنى ربى .

وروى أنه - رضى الله عنه لما طعن - وحمل إلى بيته .. وجاء الناس يشنون عليه جاءه شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين .. ببشرى الله لك صحبة من رسول الله ﷺ .. وقدم فى الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة .. فقال : وددت أن ذلك كان كفافا لى لا على ولا لى .

ظل عمر رضى الله عنه طوال هذه الأيام الثلاثة .. يدير شؤون المسلمين ويدير شؤون الأمبراطورية الإسلامية .. حتى قبض .

وقيل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. قال هذه الأبيات فى آخر حجة له :

(٣٥) سورة ق الآية : ١٩ .

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والجن والإنس فما بينها تردوا
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوما كما وردوا

وروى عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : أتيت أخى عثمان وهو محصور .. فدخلت عليه .. فقال : مرحبا يا أخى .. رأيت رسول الله ﷺ في هذه الخوخة الليلة .. وهى خوخة فى البيت - فقال : يا عثمان حصروك ؟ قلت : نعم .. قال عطشوك ؟ قلت : نعم .. فأدلى إلى دلوا فيه ماء .. فشربت منه حتى رويت .. حتى إنى لأجد برده بين ثدى وكتفى .. وقال لى : إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا .. فأخترت أن أفطر عندهم .. فقتل فى ذلك اليوم رضى الله عنه .

روى أنه لما كانت الليلة التى أصيب فيها الإمام على كرم الله وجهه ورضى الله عنه آتاه ابن التياح .. حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو متثاقل فى رقدته .. فعاد إليه الثانية يؤذنه بالصلاة .. ثم عاد إليه الثالثة .. فقام الإمام يمشى وهو يقول :

أشد حيازمك للموت فإن الموت لا قيكاً
ولا تجزع من الموت إن حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه بن ملجم .. فضربه بالسيف فى جبهته فقال : فزت ورب الكعبة .. أى فاز بالشهادة فى سبيل الله - فهم أناس عشقوا لقاء الله عز وجل .

أقوال بعض الصالحين فى سكرات الموت :

روى أنه لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى فأقعدوه فجعل يذكر الله ويسبحه ثم بكى .. وقال : تلهك ربك يا معاوية بعد الهرم

والانحطام ألا كان هذا وغصن الشباب نضر .. وبكى حتى علا بكأؤه ..
وقال : يارب أرحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي .. اللهم أقل العسرة ..
وأغفر الذلة .. وأعد بحلمك على من لا يرجو غيرك .. ولم يثق بأحد سواك .
وروى أنه لما حضرت معاذ بن جبل الوفاة .. قال : اللهم أنى كنت
أخافك وأنا اليوم أرجوك .. اللهم أنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول
البقاء فيها لجرى الأنهار وغرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر .. ومكابدة
الساعات ومزاحمة العلماء بالركب .

وروى أنه لما حضرت الحسن بن علي رضي الله عنهما الوفاة .. دخل
عليه أخوه الحسين رضي الله عنه فقال له : يا أخى لأى شيء تجزع .. تقدم
على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك .. وعلى خديجة
وفاطمة وهما أملك .. وعلى حمزة وجعفر وهما عماك .. قال : يا أخى أقدم على
أمر لم أقدم على مثله .

وروى عن محمد بن الحسين رضي الله عنهما قال : لما نزل القوم
بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه .. قام في أصحابه خطيباً .. فحمد
الله وأثنى عليه .. ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون .. وإن الدنيا قد تغيرت
وتنكرت وأدبر معروفها .. وانشمرت حتى لم يبق منها كصباة الإناء ..
ألا حسبي من عيش كالمرعى الويل .. ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل
لا يتناهى عنه .. ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى .. وأنى لا أرى الموت
إلا سعادة .. والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

وروى أنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة .. قال له : ابنه : يا أبتاه
أنك كنت تقول : ياليتنى ألقى رجلاً عاقلاً ليبيأ .. عند نزول الموت حتى
يصف لي ما يجد .. وأنت يابتي هذا الرجل .. فصف لي الموت .. فيقول
عمرو : وهو يعالج سكرات الموت : والله يابني كأن جسمي في جب
من نار .. وكأني أتنفس من خرم أبره .. وكأن روحي غصن شوك يجذب من
قدمي إلى رأسي ..

وقال بعض الصالحين :

يامن تقدم جده وأبوه وصديقه سكن الثرى وأخوه
ألا أتيت قبورهم فسألتها عنهم وعن ما فى القبور لقوه
فلتخبرنك أن أحكام البلى تجرى عليهم منذ هم ووطنوه
ولتخبرنك أنهم وجدوا الذى عملوه مكتوبا كما عملوه

وروي أنه لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غسل بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا أكل من كسب يدي يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدد ياأمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وترككم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ (٣٦) قال ذلك ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، زوجة عمر بن عبد العزيز : كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذى قبض فيه ، خرجت من عنده ، فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب ، وهو فى قبة له ، فسمعتة يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ (٣٧) .. ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما ، فقلت : لو صيف له ، أنظر أنائم هو ، فلما دخل صباح ، فوثبت فإذا هو ميت .

(٣٦) الأنعام الآية : ٩٤

(٣٧) القصص الآية : ٨٣ .

وقيل له لما حضره الموت : أعهد ياأمير المؤمنين ؟ قال .أحذركم مثل مصرعى هذا ، فإنه لأبد لكم منه .

وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز .. دعى له طبيب .. فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم .. ولا آمن عليه الموت .. فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن من الموت أيضا على من لم يسق السم .. قال الطبيب : هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى .. قال : فتعالج ياأمير المؤمنين .. فإني أخاف أن تذهب نفسك قال : ربي خير مذهوب إليه .. والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذنى ما رفعت يدي إلى أذنى فتناولته .. اللهم عجل لعمر فى لقائك .. فلم يلبث أياما إلا مات .

وقيل لما حضرته الوفاة بكى .. ف قيل له : ما يبكيك ياأمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا ، فأظهر بك عدلا ، فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقيها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات .

وقيل أنه لما اقترب وقت موته قال : أجلسوني .. فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، ثلاث مرات ، ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر ف قيل له فى ذلك ، فقال : أنى لأرى حضرة ما هم بإنس ولا بجن ثم قبض رحمه الله .

ولما حضرت سلمان الفارسى رضى الله عنه .. الوفاة ف قيل له ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا - الكفاف من العيش - كزاد الراكب ، فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلال رضى الله عنه الوفاة قللت إمرأته : واحزنه .. فقال : واطرباه غدا نلقى الأخبة محمدا وحزبه ..

وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم
النيروز وهو يقرأ القرآن ، فختم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال :
ومن أولى بذلك مني ، وهو ذا تطوى صحيفتي .

وكان أبو سعيد الخراز يقول لما حضرته الوفاة :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر	وتذكّارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنيا عليهم	فأغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي الشكر
همومهم جواله بمعسكر	به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته ،
فقلت : كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طيبي ما بي والذي بي أصابني من طيبي
فأخذت المروحة لأروحه فقال : كيف تجد ريح المروحة من جوفه
يحترق ثم أنشأ يقول :

القلب محترق ، والدمع مستبق	والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له	مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب أن يك شيء لي فيه فرج	فأمنن على به ما دام لي رمق

وروى أن الشبلي رضى الله عنه .. دخل عليه جماعة من أصحابه وهو
في الموت ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله .. فأنشأ يقول :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا . يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وروى أن المزني دخل على الإمام الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي مات فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملي ملاقيا ، ولكأس المنية شاربيا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ... ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهدته حذيفة فوجده قلقا فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال : يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وأنا لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة واعجابه لهذا الرجل الصالح ، يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله .

وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود رضي الله عنهما وهو في مرض موته من آخر الليل .. قم فأنظر أي ساعة هي فقام ابن مسعود .. ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء .. فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار .

ودخل مروان على أبي هريرة .. فقال مروان : اللهم خفف عنه .. فقال أبو هريرة : اللهم أشدد .. ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا للدنيا ولا جزعا من فراقكم .. ولكن انتظر احدي البشرين من ربي بجنة أم بنار .

وروى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا ملك الموت أذهب إلى فلان فآتني بروحه لاريحه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب ، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ « قال » فيقول له جنوده : مالك يا سيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد

من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا قد جهدنا به فكان معصوما « (٣٨) .

وقال الحسن رضى الله عنه : لا راحة للمؤمن إلا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فى يوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه وعزه وشرفه .

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضى الله عنهما .. حديثا لسيدنا رسول الله ﷺ .. يصف فيه لنا ساعة الرحيل عن عالم الشهادة إلى أول منزل من منازل عالم الغيب .. يصف لنا سكرات الموت وغمراته :

فيقول البراء بن عازب رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار .. فأنتهينا إلى القبر . ولما يلحد .. فجلس رسول الله ﷺ .. وجلسنا حوله كأننا على رؤوسنا الطير .. وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال : « أستعيدوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاث - ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وأقبال من الآخرة .. نزل ملائكة من السماء .. يبض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسون منه مد البصر .. ثم يحيى ملك الموت » ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : « أخرجى أيتها النفس المطمئنة ، أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها ، لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يأخذونها فيجعلونها فى ذلك الكفن ، وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان . بأحسن الأسماء التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهون إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له - أبواب السماء - فيفتح لهم ، فيشيئه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول

(٣٨) الحديث : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بإسناد ضعيف .

الله عز وجل : أكتبوا كتاب عبادى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه إلى الأرض . فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله عز وجل ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل فأمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء ، أن صدق عبادى ، فأفرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وأفتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها ، وطيبها ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجرى بالخير ، فيقول : أنا عمك الصالح ، فيقول : ربي أقم الساعة ، ربي أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

ثم قال : وأن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وأقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ، والمسوح هى خرق باليه مهلهلة سوداء اللون - فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : يا أيها النفس الخبيثة ، أخرجى إلى سخط من ربك ، وغضبه ، قال : فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها ، كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له - أبواب السماء - فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون ﴾

الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» (٣٠) فيقول الله عز وجل : أكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا ، ثم قرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في سحق ﴾ (٤٠) .

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك؟ فيقول : ها ، ها ، لا أدري ، فيقولان له : ما دينك؟؟ فيقول : ها .. ها .. لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : ها .. ها لا أدري ، فينادى مناد من السماء ، أن كذب عبدى ، فأفرشوا له من النار ، وأفتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ... ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول له : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يحىء بالشر ، فيقول : أنا عمك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة ، رب لا تقم الساعة .

ويروى لنا الإمام أحمد رضى الله عنه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .. قال : البراء : بينما نحن مع رسول الله ﷺ .. إذ بصر بجماعة .. فقال : « علام اجتمع هؤلاء ؟ قيل : على قبر يحفرونه .. ففزع رسول الله ... فبدر بين يدى أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر فجثا على ركبتيه .. فاستقبله من بين يديه لأنظر ما يصنع .. فبكى حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا .. أى إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا » .

يقول الحق سبحانه وتعالى - في سورة النحل : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم

(٣٩) سورة الأعراف الآية : ٤٠ .

(٤٠) سورة الحج الآية : ٣١ .

بما كنتم تعملون ، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مشى
المتكبرين ﴿١٠﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى : فى نفس السورة : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة
طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

أخى : هذه نهاية السابقين . أمام عينيك ... فاختر لنفسك منها
ما تشاء .. وأى النهايات لنفسك تفضل فأعمل لها ...

هذا طريق الشيطان والهوى	وهذا طريق النور والضياء
فاختر لنفسك يا أخى .	أى الطريقين منهما تشاء
ولا تبكى على مصيبة أبدا .	أنما على الذنب البكاء
ولا تحسبن أنك فيها خالد .	فلله الخلد وله البقاء
ولا تهن النفس فى الدنيا	فله الملك يعطى من يشاء
فإذا أغلقت دونك أبوابه .	فمن يغدق عليك العطاء ؟
أتدرى إذا ما جن ليل	أتصبح أم يكون عليك العواء ؟
وإذا ما أصبحت يوما	فمن يضمن لك المساء ؟
فلا تحزن وأضرع إليه .	سميع لا يخيب لديه الرجاء
وتب إليه يا أخى واستغفر	فأنه غفار لمن يشاء

غسل الميت

أحكام الغسل :

١ - حكمه : يرى جمهور العلماء أن غسل الميت المسلم فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن جميع المكلفين ، لأمر رسول الله ﷺ به ، ولحفاظة المسلمين عليه .

٢ - من يجب غسله ومن لا يجب : يجب غسل الميت المسلم الذى لم يقتل فى معركة بأيدى الكفار .

٣ - غسل بعض الميت : واختلف الفقهاء فى غسل بعض الميت المسلم ، فذهب الشافعى وأحمد وابن حزم إلى أنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ، قال الشافعى : بلغنا أن طائرا ألقى يدا بمكة فى وقعة الجمل ، فعرفوها بالخاتم فغسلوها ، وصلوا عليها وكان ذلك بمحضر من الصحابة وقال أحمد : صلى أبو أيوب على رجل ، وصلى عمر على عظام . وقال ابن حزم : ويصلى على ما أخذ من الميت المسلم ، ويغسل ، ويكفن إلا أن يكون من شهيد ، قال : وينوى بالصلاة على ما وجد منه ، الصلاة على جميعه : جسده وروحه .

وقال أبو حنيفة ، ومالك : إن وجد أكثر من نصفه غسل وصلى عليه وإلا فلا غسل ولا صلاة .

٤ - الشهيد لا يغسل : الشهيد الذى قتل بأيدى الكفرة فى المعركة لا يغسل ولو كان جنبا ، ويكفن فى ثيابه الصالحة للكفن ، ويدفن فى دمائه ولا يغسل شئ منها ، روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تغسلوهم فإن كل جرح ، أو كل دم يفوح مسكا يوم القيامة » ،

« وأمر عليه الصلاة والسلام بدفن شهداء أحد في دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصلى عليهم » (٤١) .

صفة الغسل :

الواجب في غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ولو كان جنباً أو حائضاً والمستحب في ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرد من ثيابه ، ويوضع عليه ساتر يستر عورته ، ما لم يكن صبياً ، ولا يحضر عند الغسل إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره ، وينبغي أن يكون الغاسل أميناً صالحاً ، لينشر ما يراه من الخير ويستر ما يظهر من الشر فعند ابن ماجه : أن رسول الله ﷺ قال : « ليغسل موتاكم المأمونون » .

وتجب النية عليه ، لأنه هو المخاطب بالغسل ، ثم يبدأ فيعصر بطنه عصراً رقيقاً ، لإخراج ما عسى يكون بها ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته فإن لمس العورة حرام .

ثم يوضئه وضوء الصلاة ، لقول رسول الله ﷺ : « ابدأ بميامنها ومواضع الوضوء منها » ولتجديد سمة المؤمنين في ظهور أثر الغرة والتحجيل ، ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون ، أو الماء القراح ، مبتدئاً باليمين ، فإن رأى الزيادة على الثلاث بعدم حصول الانقاء بها أو لشيء آخر غسله خمسا أو سبعا ففي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « اغسلنها وترا : ثلاثاً أو خمسا أو سبعا ، أو أكثر من ذلك إن رأيتن » .

فإذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغسل وأعيد تضيفه وأرسل خلفها ، ففي حديث أم عطية : أنهن جعلن رأس ابنة النبي ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم .

فإذا فرغ من غسل الميت جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبطل أكفانه ،

(٤١) كتاب فقه السنة : ج ٤ .

ووضع عليه الطيب ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أجمرت الميت فأوتروا »
أجمرت : أى بخرتم - هذا الحديث رواه البيهقى والحاكم .

الكفن :

١ - حكمه : تكفين الميت فيما يستره ولو كان ثوبا واحدا فرض
كفاية ، روى البخارى عن خباب رضى الله عنه قال : هاجرنا مع رسول الله
ﷺ نلتمس وجهه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل
من أجره شيئا ، منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد فلم نجد ما نكفنه إلا
بردة ، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطينا رجله خرج رأسه ،
فأمرنا النبي ﷺ أن نغطى رأسه وأن نجعل على رجله
من الأذخر (حشيشة طيبة الراحة) .

٢ - ما يستحب فيه : يستحب فى الكفن ما يأتى :

أن يكون حسنا نظيفا ساترا للبدن ، لما رواه ابن ماجه والترمذى
وحسنه عن أبى قتادة أن النبي ﷺ قال : « إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن
كفنه » .

أن يكون أبيض ، لما رواه أحمد والترمذى وصححه عن ابن عباس
أن النبي ﷺ قال : « ألبسوا من ثيابكم البيض فإنها من خير ثيابكم ،
وكفنوا فيها موتاكم » .

أن يحمر ، ويبيخر ، ويطيب ، لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر
أن النبي ﷺ قال : « إذا أجمرت الميت فأجمروه ثلاثاً » .

أن يكون ثلاث لفائف للرجل ، وخمس لفائف للمرأة ، لما رواه
الجماعة عن عائشة قالت : كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض
سحولية ، جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة . قال الترمذى : والعمل على
هذا عند أكثر أهل العلم .

وقال سفيان الثوري : يكفن الرجل في ثلاثة أثواب ، إن شئت في قميص ولفافتين وإن شئت في ثلاث لفائف ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق ، وقالوا تكفن المرأة في خمسة أثواب .

وعن أم عطية أن النبي ﷺ ناولها : ازارا ودرعا (القميص) وخمارا (غطاء الرأس) وثوبين .

تكفين المحرم :

إذا مات المحرم غسل كما يغسل غيره ، ممن ليس محرما وكفن في ثياب أحرامه ولا تغطي رأسه ، ولا يطيب لبقاء حكم الإحرام ، لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته (أى قتلتة) ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبيه ، ولا تحنطوه ، ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى بيعته يوم القيامة مليا » . وذهبت الحنفية والمالكية إلى أن المحرم إذا مات انقطع إحرامه ، وبانقطاع إحرامه يكفن كالحلال ، فيخاط كفنه ، ويغطي رأسه ويطيب ، وقالوا : إن قصة هذا الرجل واقعة عين لا عموم لها فتختص به ، ولكن التعليل بأنه يبعث يوم القيامة مليا ظاهر أن هذا عام في كل محرم ، والأصل أن ما ثبت لأحد الأفراد من الأحكام يثبت لغيره ما لم يقم دليل على التخصيص .

الكفن من الحرير : لا يحل للرجل أن يكفن في الحرير ، ويحل ذلك للمرأة لقول رسول الله ﷺ في الحرير والذهب : « إنهما حرام على ذكور أمتي حل لإناثها » وذلك على أن يكون الكفن من مال الميت ، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته ، وإن لم يكن له من ينفق عليه كفن من بيت المال ، وإلا فعلى المسلمين .

الصلاة على الميت :

حكمها :

من المتفق عليه بين أئمة الفقه ، أن الصلاة على الميت ، فرض كفاية لأمر رسول الله ﷺ بها ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه فضلا ؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين « صلوا على صاحبكم » .

فضلها :

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من تبع جنازة وصلى عليها ، فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان أصفرهما مثل أحد ، أو أحدهما مثل أحد » .

وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : يا عبد الله ابن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من خرج مع جنازة من بيتها ، وصلى عليها ، ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من أجر كل قيراط مثل أحد ومن صلى عليها ثم رجع ، كان له مثل أحد » فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خبابا إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت ، فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

شروطها :

صلاة الجنازة يتناولها لفظا صلاة ، فيشترط فيها الشروط التى تفرض فى سائر الصلوات المكتوبة من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر والأصغر واستقبال القبلة ، وستر العورة ، وروى مالك عن نافع أن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

أركانها :

صلاة الجنائز لها أركان تتركب منها حقيقتها ولو ترك منها ركن بطلت ووقعت غير معتد بها شرعا ، ونذكرها فيما يلي :

النية : لقول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقول رسول الله ﷺ : « أنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » ، والمعروف شرعا أن النية محلها القلب ولا يجوز التلفظ بها .

القيام للقادر عليه : وهو ركن جمهور العلماء ، فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكباً أو قاعداً بغير عذر .

التكبيرات الأربع : لما روى البخارى ومسلم عن جابر أن النبي ﷺ صلى على النجاشى فكبر أربعاً ، قال الترمذى : العمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم يرون التكبير على الجنائز أربع تكبيرات ، وهو قول سفيان ومالك ، وابن المبارك والشافعى وأحمد .

والسنة عدم رفع اليدين فى صلاة الجنائز إلا فى أول تكبيرة فقط ، لأنه لم يأت عن النبي ﷺ أنه رفع فى شئ إلا فى أول تكبيرة فقط .

قراءة الفاتحة سرا والصلاة والسلام على الرسول : لما رواه الشافعى فى مسنده عن أبى أمامة ابن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ « أن السنة فى الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ، ثم يصلى على النبي ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنائز ، فى التكبيرات ، ولا يقرأ فى شئ منهن ثم يسلم سرا فى نفسه .

الدعاء : وهو ركن باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : « إذا صليت على الميت فأخلصوا له الدعاء » رواه أبو داود والبيهقى .

ويتحقق بأى دعاء مهما قل ، والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة الآتية : قال أبو هريرة : دعا رسول الله ﷺ فى الصلاة

على الجنازة فقال : « اللهم أنت ربها ، وأنت خلقتها ، وأنت رزقتها ، وأنت هديتها للإسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسرها وعلايتها ، جئنا شفعا لها ، فأغفر له ذنبه » .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « اللهم ان فلان ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك (العهد) فقه فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحق ، اللهم فأغفر له وأرحمه فإنك أنت الغفور الرحيم » رواهما أحمد وأبو داود .

عن عوف ابن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ - وقد صلى على جنازة - يقول : « اللهم اغفر له ، وارحمه وأعف عنه ، وعافه وأكرم نذله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج ، وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجته ، وقه فتنة القبر وعذاب النار » رواه الإمام مسلم .

وعن أبي هريرة قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا ، وغائبنا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تضلنا بعده » رواه أحمد وأصحاب السنن .

الدعاء بعد التكبيرة الرابعة :

يستحب الدعاء بعد التكبيرة الرابعة ، وإن كان المصلي دعا بعد التكبيرة الثالثة ، لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبي أوفى أنه مات له ابنه فكبر عليها أربعاً ، ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم قال : كان رسول الله ﷺ يصنع في الجنازة هكذا ، وقال الشافعي : يقول بعدها اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده . وقال ابن أبي هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

السلام : وهو متفق في فرضيته بين الفقهاء ما عدا أبا حنيفة فقال :
بأن التسليمتين يميناً وشمالاً واجبتان وليستا ركنين .

كيفية الصلاة على الجنازة :

أن يقف المصلي بعد استكمال شروط الصلاة ناوياً الصلاة على من
حضر من الموتى رافعاً يديه مع تكبيرة الإحرام ، ثم يضع يده اليمنى
على اليسرى ويشرع في قراءة الفاتحة ، ثم يكبر ويصلي على النبي ، ثم يكبر
ويدعو للميت ، ثم يكبر ويدعو ، ثم يسلم .

موقف الإمام من الرجل والمرأة :

من السنة أن يقوم الإمام حذاء رأس الرجل ، ووسط المرأة ، لحديث
أنس : أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه ، فلما رفعت ، أتى بجنازة
امرأة ، فصلى عليها فقام وسطها ، فسئل عن ذلك ، وقيل له : هكذا كان
رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ، ومن المرأة حيث قمت ؟ قال
نعم . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى .

يستحب الصفوف الثلاثة : يستحب أن يصف المصلون على الجنازة
ثلاثة صفوف وأن تكون مستوية ، لما رواه مالك بن هبيرة قال : قال رسول
الله ﷺ : « ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون
أن يكونوا ثلاثة صفوف ، إلا غفر له ، فكان مالك ابن هبيرة يتحرى إذا
قل أهل الجنازة أن يجعلهم ثلاثة صفوف » رواه أحمد والترمذى .

ويستحب تكثير جماعة الجنازة ، لما جاء عن عائشة : أن النبي ﷺ
قال : « ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة ، كلهم
يشفعون له ، إلا شفّعوا » رواه مسلم وأحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً ، لا يشركون
بالله شيئاً ، إلا شفّعهم الله فيه » رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

حمل الجنازة والسير بها :

يشرع تشيع الجنازة وحملها وعن أبي سعيد : أن النبي ﷺ قال : « عودوا المريض ، وامشوا مع الجنازة تذكركم الآخرة » رواه أحمد ورجال ثقات .

وقد تقدم ذكر الثواب الذى يناله المشيعون للجنازة والمصلون عليها .

كما يستحب الإسراع بالجنازة لما رواه الجماعة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم » .

ما يكره مع الجنازة : يكره فى الجنازة الإتيان بفعل من الأفعال الآتية :

١ - رفع الصوت : بذكر أو قراءة ، أو غير ذلك ، قال ابن المنذر روي عن قيس بن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر ، وعند القتال .

٢ - أن تتبع بنار لأن ذلك من أفعال الجاهلية ، وفى وضية عائشة ، وعبادة بن الصامت ، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدرى ، وأسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهم أن لا تتبعونى بنار ، (رواه البيهقى) .

فإن كان الدفن ليلا واحتاجوا إلى ضوء فلا بأس به ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس أن النبي ﷺ « دخل قبرا ليلا فأسرج له سراج » .

٣ - قعود المتبع لها قبل أن توضع على الأرض : قال البخارى من تبع جنازة فلا يقعد حتى توضع عن مناكب الرجال ، فإن قعد أمر بالقيام ، ثم روى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيت الجنازة فقوموا فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع » وروى عن سعيد المقبرى عن أبيه قال : كنا فى جنازة ، فأخذ أبو هريرة رضى الله عنه بيد مروان فجلسا قبل أن توضع ، فجاء أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه

فأخذ بيد مروان فقال : قم فوالله لقد علم هذا أن النبي ﷺ نهانا عن ذلك ، فقال أبو هريرة صدق » (رواه الحاكم) .

٤ - القيام لها عندما تمر ، لما رواه أحمد عن واقد بن عمرو بن سعيد بن معاذ قال : شهدت جنازة في بني سلمة ، فقامت فقال لي نافع بن جبير : أجلس فأني سأخبرك في هذا بثبت (حجة) حدثني مسعود ابن الحاكم الزرق أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : كان النبي ﷺ * أمرنا بالقيام في الجنازة ثم جلس بعد ذلك : فأمرنا بالجلوس » رواه مسلم .

٥ - اتباع النساء لها ، لما روى عن أم عطية قالت : « نهينا أن نتبع الجنائز ، ولم يعزم علينا (أى لم يوجب علينا) » رواه أحمد والبخاري ومسلم . وهذا مذهب ابن مسعود وابن عمر والحنفية والشافعية والحنابلة . وعند مالك : أن لا يكره خروج النساء بشرط أن تكون مستترة ولا يترتب على خروجها فتنة .

ويرى ابن حزم أن ما استدل به الجمهور غير صحيح وأنه يصح للنساء اتباع الجنازة : فيقول : ولا نكره اتباع النساء للجنازة ، وتمنعن من ذلك . حيث جاءت في النهي عن ذلك آثار ، ليس شيء منها يصح ، لأنها أما مرسلة وأما عن مجهول ، وأما عمن لا يصح الاحتجاج به .

وذكر حديث أبو هريرة : أن رسول الله ﷺ كان في جنازة فرأى امرأة فصاح بها عمر ، فقال رسول الله ﷺ : « دعها يا عمر فإن العين دامة ، والنفس مصابة ، والعهد قريب » وإسناد هذا الحديث صحيح . ولكننا نؤيد ما راه الجمهور في هذا الأمر والله أعلم .

الباب الثاني الحياة البرزخية

- الفصل الأول : القبر
- الفصل الثاني : عذاب القبر ونعيمه .
- الفصل الثالث : منازل الأرواح .

الباب الثانى الحياة البرزخية

مقدمة :

المرحلة البرزخية .. تبدأ بـدفن الميت فى قبره .. ونهايتها يوم القيامة يوم ينفخ فى الصور فيقوم الناس لرب العالمين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا أنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (١) .

فالقبر أول منزل من منازل الآخرة كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « القبر أول منزل من منازل الآخرة » (٢) .

وعلى ذلك فهو عنوان الآخرة وقبسة منها .. ولذلك قال رسول الله ﷺ : « انما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » (٣) .

ولكن قبل أن ندخل القبر لنرى ما فيه ... نريد أن نلقى نظرة سريعة على الروح فى هذه الفترة التى أعقبت خروجها من الجسد .. بإحدى الطريقتين السابقتين .. وإن كانت الروح من الأسرار التى لم يفصح عنها الحق سبحانه وتعالى .. واحتفظ به وأخفاه علينا .. إلا أن سيدنا رسول الله ﷺ .. الذى

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠

(٢) الحديث : رواه الإمام مسلم .

(٣) الحديث : رواه الإمام الترمذى .

لا ينطق عن الهوى وإنما وحى يوحى إليه .. أخبرنا ببعض أسرار الروح في مواقف معينة .. وإن كانت هذه الأسرار التي كشف عنها لا تشفى غليلاً .. ولا تروى ظمأ الطالب للمعرفة .. لأنه ما كشف عنها إلا كدليل فقط يزيد الإيمان رسوخاً في القلوب التي استنارت بنور الإيمان فإذا ما خرجت الروح من الجسد .. سواء بالرضى أو بالإكراه .. فإن الملائكة تحملها وتصعد بها إلى السموات العلا .. فإن كانت روح مؤمنة ... فإنها تواصل الصعود محمولة معززة مكرمة ... يشيعها من كل سماء مقربوها حتى تصل إلى السماء السابعة .. فيأمر الحق سبحانه وتعالى بأن يكتب كتاب عبده في عليين ... وأن تعاد روحه إلى الأرض ... والحاملون لها هم ملائكة الرحمة ...

أما إن كانت روحاً فاسقة كافرة ... فإن ملائكة العذاب يحملونها ويصعدون بها حتى السماء الدنيا وهنا تغلق دونها أبواب السماء ... ويأمر الحق سبحانه وتعالى أن يكتبوا هذا العبد الفاجر في سجين وأن تعاد روحه إلى الأرض ...

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره » (٤) .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله ما نصه : أعلم أن حقيقة الموت على ما دلت عليه الآيات والأخبار هو : مفارقة الروح للجسد .. لا عدم الروح .. قال الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٥) .

هذا في الشهداء .. والخبر يدل على الأشقياء أيضاً قال عليه الصلاة والسلام يوم بدر لصناديد قريش لما قتلوا « يا فلان .. يا فلان .. قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .. فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فقيل : يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ » قال ﷺ : « والذي نفسي بيده إنهم

(٤) رواه الإمام أحمد في حديث أبي سعيد الخدري .

(٥) آل عمران الآية : ١٦٩ .

لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرّون على الجواب» (٦) .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن الروح تدخل القبر مع الجسد لأن
الاستماع صفة من صفات الروح .. وليس من صفات الجثة الهامدة والآن نترك
الروح داخل القبر ولندخل إليها .. لنلقى نظرة على ما فيه .

(٦) رواه الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب .

الفصل الأول القبر

- وصف القبر .
- استئناس الميت .
- تلقين الميت .
- تذكر القبور .
- زيارة القبور .
- البدع في القبور .

الفصل الأول

القبر

وصف القبر وما فيه :

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « ما رأيت منزلا فظيما إلا والقبر أفضع منه »^(١) .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه .. إذا وقف على قبر .. بكى حتى بل لحيته .. فسئل عن ذلك .. وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى إذا وقفت على القبر ؟ .. فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإذا نجا منه صاحبه ، فما بعده أيسر وأن لم ينج منه .. فما بعده أشد »^(٢) .

وروى أن رسول الله ﷺ .. دخل مصلاه .. فرأى أناسا كأنهم يكثرون - ترتفع أصواتهم بالحديث - فقال : « أما أنكم لو أكثرتم من ذكر هازم اللذات الموت .. فإنه لا يأتي على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت الغربة أنا بيت الوحدة .. أنا بيت التراب .. أنا بيت الدود .. فإذا ما دفن العبد المؤمن .. قال له القبر : مرحبا وأهلا .. أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلى .. فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعى بك .. قال : فيتسع مد بصره ويفتح له بابا إلى الجنة .

(١) الحديث : رواه الإمام الترمذى .

(٢) الحديث : رواه الإمام مسلم .

وإذا دفن العبد الكافر أو الفاجر .. قال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلى .. فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعى بك .. قال : فيلثم عليه حتى تختلف أضلاعه .. قال : ويقبض له سبعون تينا لو أن واحدا منها نفخ في الأرض .. ما أنبت شيئا ما بقيت الدنيا .. فينشه ويخدشه .. حتى يفضى به إلى الحساب» (٣) .

إذا ما دفن الميت في قبره خاطبه القبر .. أهلا ومرحبا إذا كان مؤمنا ويقول له غير ذلك إن كان كافرا فاجرا .. ثم يأتي ملكان لسؤاله .

وهما منكر ونكير .. فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ وما قولك في هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ .. فإن كان مؤمنا صالحا وفقه الله سبحانه وتعالى وألهمه الإجابة السليمة قال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (٤) .

فيكون قبره روضة من رياض الجنة .. حتى يقوم الحساب .. فهو في عيشة راضية منعمة ...

وإن كان فاجرا كافرا .. فانه لا يستطيع الإجابة على الملكين .. لأن الله سبحانه وتعالى يخذله في هذه الساعة .. يقول تعالى في بقية الآية السابقة : ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .. فالحق سبحانه وتعالى .. يتركهم لأنفسهم بلا مساندة .. فلاضلال هنا .. بما قدمت أيديهم .. أى أن الضلال في الآخرة نابع من نفس العبد الفاجر وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .. فإذا سئل هذا العبد الفاجر قال : لا أدري فيكون قبره حفرة من حفر النار .. يلقي من أصناف العذاب ألوانا شتى وهو في ذلك حتى يقوم الناس لرب العالمين .

(٣) الحديث : رواه الإمام الترمذى .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبر الميت أتاه ملكان ، أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر وللآخر النكير .. فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا .. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين .. ثم ينور له فيه .. ثم يقال له : ثم .. فيقول : ارجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان له : ثم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه .. حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وإن كان منافقا أو كافرا .. قال : سمعت الناس يقولون : قولا فقلت مثله .. لا أدري .. فيقولان .. قد كنا نعلم أنك تقول ذلك .. فيقال للأرض التثمي عليه فتلتثم عليه فتختلف أضلاعه .. فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » (٥) .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ، ما غرك بي ، ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فذاذا (مختالا) فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيقول القبر : إني إذا أتحوّل عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى » (٦) .

وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ، ناداه جيرانه من الموتى : يأيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر ؟ أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة ؟ فهلا استدركت ما فات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض ، يأيها المغتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ؟ ثم سبق به أجله

(٥) رواه الترمذى وحسنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني .

إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاده أحبته إلى المنزل الذى لا بد له منه .

وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره أحتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته ، أنقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا .

وقال عبد الله بن عمير في جنازة : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول : ويحك ابن آدم ، أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ، وننتي وهولي ودودي فماذا أعددت لي ؟ » (٧) .

وعن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أزرع في زراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك آتاك فتانا القبر : منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران شعرهما ويبحثان القبر بأنياهما فتلتلاك وترترك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ » فقال عمر : ويكون معي مثل عقلى الآن ؟ قال نعم قال : إذا أكفيكما (٨) .

ومن هنا نعلم أن الميت يكون في كامل قواه العقلية ولا يتغير بالموت ، فيكون الميت عاقلا مدركا يستطيع أن يتذكر ويحجب ولكن الكيفية التي يعود بها العقل إلى الميت هي التي لا يعلمها إلا الحق سبحانه وتعالى .

هل يعفى أحد من سؤال القبر ؟

نعم إن لله سبحانه وتعالى عبادا لا يسألون في قبورهم ولا يفتنون فيها أبداً .

(٧) الحديث : رواه ابن أبي الدنيا في القبور مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد

إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه .

(٨) الحديث : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور مرسلًا ورجاله ثقات .

أولهم : الأنبياء والمرسلين - أجمع الفقهاء على أن الرسل والأنبياء لا يسألون في قبورهم ، لأن السؤال في القبر فتنة ، فهو يوجه إلى من يجوز افتتانه عن ما مات عليه ، وهؤلاء عليهم الصلاة وأذكى السلام الشأن فيهم عدم الافتتان فلا يسألون .

وكذلك بالقياس على الشهداء ، فهم أقل مرتبة من الرسل والأنبياء ، والشهداء لا يسألون في قبورهم بنص حديث سيدنا رسول الله ﷺ فمن باب أولى ألا يسأل الرسل والأنبياء .

وثانيهم : شهداء المسلمين : الذين قتلوا في ميدان الحرب والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

فلقد روى عن راشد بن سعيد رضى الله عنه عن رجل من الصحابة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهداء ؟ فقال : « كفا ببارقة السيوف على رأسه فتنة » (٩) .

وثالثهم : المرابط في سبيل الله : وهو الحارس الذى يربط للحراسة في سبيل الله ، فعن سلمان الفارسي رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه أجرى عليه عمله الذى كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان » (١٠) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر » (١١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى الله عليه أجر عمله الصالح الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان ويبعثه الله آمناً من الفرع » (١٢) .

(٩) أخرجه النسائي بإسناد جيد .

(١٠) أخرجه الإمام الترمذى .

(١١) رواه الإمام مسلم .

(١٢) أخرجه الإمام الترمذى .

ورابعهم : الطفل والمجنون : فلما كان سؤال القبر عن التكليف بالآيمان والأعمال ، وكان الطفل غير مكلف ، والمجنون : يرفع عنه التكليف فإنهما لا يسألان في القبر .

وإن كان هناك خلاف بين العلماء على سؤال الأطفال وعدم سؤالهم ولكن الراجح عدم السؤال .

وخامسهم : الصديقين : فكل من لازم الصدق ظاهراً وباطناً حتى يكتب عند الله صديقاً فإنه يعفى من السؤال في القبر ، وذلك قياساً على الشهيد والمرابط .

فالمعروف أن الصديق أعظم منزلة عند الله سبحانه وتعالى من الشهيد والمرابط ، وقال القرطبي : إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً لا يفتن لأنه تقدم ذكره في التنزيل على الشهداء ، وقد صح في الرابط الذي هو دون الشهيد ، ألا يفتن فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه ومن الشهيد .

وسادسهم : الميت بالطاعون : فعن عائشة رضي الله عنهما أنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون ؟ فقال : « كان عذاباً على من شاء من عباده ، فجعله رحمة للمؤمنين ، فليس من رجل يقع في الطاعون ، فيمكث فيه صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد » (١٣) .

وسابعهم : المبطون : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات مبطوناً مات شهيداً ، ووقى فتنة القبر ، وغدا ويرجى عليه يرزق من الجنة » (١٤) .

وثامنهم : قارئ القرآن : قارئ القرآن المواظب على قراءته وقد تقدم

(١٣) رواه الإمام البخاري .

(١٤) رواه ابن ماجه في سننه .

ذكر فضل سورة الملك وأنها المنجية أى تنجى قائلها من الفتنة وكذلك المواظب على قراءة سورة السجدة ، وكذلك من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في مرض موته وقد تقدم ذكر الحديث .

وتاسعهم : من مات ليلة الجمعة أو يومها : فلقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يموت ليلة الجمعة أو يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » .

وقال الإمام الترمذى : من مات يوم الجمعة فقد انكشف الغطاء عما له عند الله تعالى ، لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم وتغلق أبوابها ، ولا يعمل سلطان النار ما يعمل في سائر الأيام ، فإذا قبض الله عبداً من عبيده فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلاً لسعادته وحسن مآبه ، وأنه لم يقبض في هذا اليوم العظيم إلا من كتب الله له السعادة عنده لذلك يقيه فتنة القبر .

« ضغطة القبر »

هذا وإن للقبر ضغطة شديدة لم ينج ولن ينجو منها أحد فعن حذيفة ابن اليمان قال : كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال : « يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منها هائله » (١٥) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « أن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ » (١٦) .

وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مستقامة ، فتبعها رسول الله ﷺ ، فساءنا حاله ، فلما أتهينا إلى القبر فدخله التمتع وجهه صفرة فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يا رسول الله رأينا

(١٥) الحديث : رواه الإمام أحمد بإسناد ضعيف .

(١٦) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

منك شأننا فمم ذلك ؟ قال : « ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين » (١٧) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » ، قال النسائي : يعنى سعد بن معاذ .

وكذلك الأطفال لا ينجون من ضغطة القبر :

فقد روى ابن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ ، صلى على صبي أو صبية فقال : « لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها هذا الصبي » (١٨) .

وعن أبي أيوب الأنصاري : أن صبياً دفن ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أفلت أحد من ضمة القبر ، لأفلت هذا الصبي » (١٩) .

ولكن الأنبياء لهم ضمة في القبر ؟ هذا السؤال يجيب عليه الإمام الترمذي فيقول : أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلا نعلم أن لهم في القبر ضمة ولا سؤال لعصمتهم .

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد استثناهم الحق سبحانه وتعالى من ضمة القبر لما عصمهم من الوقوع في الذنوب والأثام .

وبالقياس : فإن كل من يلتزم بمنهج الله عز وجل ، ويسير على نهج سيدنا رسول الله ﷺ ، فإن لم ينج من هذه الضغطة التي ترد منها الحمائل ، وتختلف فيهما الأضلاع ، وحتى أنها تجعل الإنسان يستغيث

(١٧) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت .

(١٨) رواه الطبراني بإسناد جيد ورجاله ثقات .

(١٩) رواه الطبراني بإسناد صحيح .

استغاثة يسمعها ما بين السماء والأرض ، فإنه يخفف عنه ويرحم من شدة هذه الضغطة فتكون ضغطة خفيفة ثم يفرج عنه كما ضم سعد بن معاذ رضى الله عنه .

وهل يعفى أحد من ضمة القبر ؟

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في مرضه الذى يموت فيه لم يفتن في قبره ، وأمن من ضغطته ، وحملته الملائكة يوم القيامة ، بأكفها حتى يميزوه من الصراط إلى الجنة » (٢٠) .

وروى أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد وهى زوجة أبو طالب عم سيدنا رسول الله ﷺ ، ومربيته ، قام عليه الصلاة والسلام ، فنزع قميصه وأمرهم أن يلبسوها إياه بين الأكفان ، وشيع جنازتها ، وحمل نعشها فلما وصل إلى القبر ، ونزل إلى اللحد فتمرغ فيه ، عسى أن يوسع الله عليها ويعفيا من ضغطة القبر ، وقيل أنه ما أعفى أحد منها إلا فاطمة بنت أسد .

روى أن سيدنا رسول الله ﷺ ، شيع جنازة فاطمة بنت أسد ، وكان مرة يحمل ، وسرة يتأخر ، ومرة يتقدم ، ثم نزل قبرها ونزع قميصه وتمعك (تمرغ) في لحدها ، فقال : « أردت ألا تمسها النار أبداً إن شاء الله » وقال : « ما عفى أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد . فقيل : يارسول الله ولا ابنك القاسم ، قال : ولا إبراهيم الذى هو أصغر منه » (٢١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ أتاه آت فقال : يارسول الله ، إن أم على وطالب وجعفر وعقيل ، قد ماتت ، فقال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى أمى ، فقمنا وكأن على رؤوس من معه الطير ، فلما انتهينا إلى الباب نزع قميصه فقال : إذا غسلتموها

(٢٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

(٢١) أخرجه الحافظ أبو نعيم في الحلية .

فأشعروها - أى اجعلوها على جسدها مباشرة- تحت أكفانها فلما خرجوا بها ، جعل رسول الله ﷺ ، مرة يحمل ومرة يتقدم ومرة يتأخر ، حتى انتهينا إلى القبر ، فتمعك في اللحد ، ثم خرج ، فقال : أدخلوها باسم الله ، وعلى اسم الله ، فلما دفنوها قام قائماً فقال : جزاك الله من أم وربية خيراً ، فنعم الأم ونعم الربية كنت لى ، فقلنا : يارسول الله ، لقد صنعت شيئين ما رأيناك صنعت مثلهما ، قال : ما هما ؟ قلنا نزعك قميصك ، وتمعك في اللحد ، قال : « أما قميصى فأريد ألا تمسها النار أبداً إن شاء الله تعالى ، وأما تمعكى في اللحد فأردت أن يوسع الله عليها في القبر » .

استئناس الميت بالمشيعين لجنازته بعد دفنه وتلقينه والقراءة على قبره :

فقد ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه ، فروى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماس المهرى ، قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو سياق الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال : ان أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنى كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ منى ولا أحب إلا أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى لقيت رسول الله ﷺ فقلت أبسط يدك لأبايعك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يدي قال : فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : قلت : أردت أن اشترط ، قال : تشترط ماذا ؟ قلت : أن يغفر لى ، قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه اجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عيني منه ، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها ، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسنوا على التراب سناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحروا جزور ويقسم

لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي ، فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن .

قال عبد الحق : يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة ، ومن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن ، وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولا حيث لم يبلغه فيه أثر ، ثم رجع عن ذلك (٢٢) .

وروى عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه ، قال أرى إذ أنا مت فضعتي في اللحد وقل بسم الله ، وعلى سنة رسول الله ، وسن على التراب سنا ، وأقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة ، فإني سمعت عبد الله ابن عمر يقول ذلك (٢٣) .

وذكر (الخلال) عن الشعبي قال : كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرأون عنده القرآن ، قال : وأخبرني أبو يحيى الناقد قال : سمعت الحسن بن الجروي يقول : مررت على قبر أخت لي فقرأت عندها تبارك ، لما يذكر فيها فجاءني رجل فقال : أرى رأيت أختك في المنام تقول : جزى الله أبا علي خيرا فقد أنتفعت بما قرأ (٢٤) .

وروى الإمام النسائي عن النبي ﷺ أنه قال : « اقرأوا يس عند موتاكم » .

وروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٢٥) .

(٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) كتاب الروح .

(٢٥) الحديث : رواه ابن أبي الدنيا .

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

تلقين الميت :

ذكر الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين : قال بشار بن غالب النجرائي : رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى : يا بشار بن غالب ، هداياك تأتينا على أطبق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير (أى مغطاه) قلت : وكيف ذاك ؟ قالت : وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أوتى به الميت ، فقيل له هذه هدية فلان إليك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وأن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار » (٢٦) .

ولهذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أبا أمانة الباهلى وهو في النزع فقال : يا سعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال : « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعدا ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له أذكر ما خرجت عليه من الدنيا ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنت رضىت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا وبالقرآن

(٢٦) رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

إماما فإن منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجة ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما » . فقال رجل يارسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال : « فلينسبه إلى حواء » (٢٧) .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ويدل على هذا أيضا ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ، ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة ، وكان عبثا ، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل .

وقراءة القرآن على القبور جائزة لما روى عن علي بن موسى الحداد قال : كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد : يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال بن قدامة لأحمد : يا أبا عبد الله ، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي ؟ قال : ثقة ، قال : هل كتبت عنه شيئا ؟ قال : نعم ، قال : أخبرني مبشر بن إسماعيل ؛ عن عبد الرحمن ابن اللجلاج عن أبيه ، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال : سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له أحمد : فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ .

وقال محمد بن أحمد المروزي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فأقرءوا فاتحة الكتاب ، والمعوذتين ، وقل هو الله أحد ، وأجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم (٢٨) .

(٢٧) الحديث : رواه الطبراني بإسناد ضعيف .

(٢٨) إحياء علوم الدين .

تذكر القبور :

وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جواي ، وكأني بي أكون مثلهم ، ثم استقبل الصلاة إلى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه الصديد ، وتخرقه الديدان مع ، تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيبة الريح ونقاء الصوت ، قال : ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه .

وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها المقبور في حفرتي ، والمتخلى في القبر بوحدته والمستأنس في بطن الأرض بأعماله ، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت ، وبأي إخوانك أغتبطت ، ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى .. وكان إذا نظر إلى القبور نهار كما يخور الثور .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال : يا ميمون : هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلاث ، وأستحكم فيهم البلى ، وأصابت الأهوام مقيلا في أبدانهم ، ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحد أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله .

وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : يا ثابت ، لا يغرنك صموت أهلها ، فكم من نفس مغمومة فيها .

ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلّت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا ، واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر بل يثسوا فانقلبوا !!

وقال أبو موسى التميمي : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج في جنازتها وجوه البصرة ، وفيهم الحسن ، فقال له الحسن : يا أبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة .

فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسّواق يسوق الفرزدقا
لقد نحاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقبرة فانشأتُ أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانسه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينهما أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدوا بنات الثرى فتمحوا محاسن تلك الصور
فياسألى عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك .

ووجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيب من الأحاب مخلص
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً
لا يرحم الموت ذا جهل لعزته
كم أخرس الموت في قبر وقفت به
قد كان قصرك معموراً له شرف
ووجد على قبر آخر مكتوباً :

يا أيها الناس كان لي أمل
فليتق الله ربه رجل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى
قصر بي عن بلوغه الأجل
أمكنه في حياته العمل
كل إلى مثله سينتقل

البصير من ينظر إلى القبور فيرى نفسه بينهم فأصحاب القبور قد
تكشفت لهم الحقائق وعرفوا قدر الأعمال وقيمتها .. فقد علموا علم اليقين
أن الله هو الحق المبين ولكن بعد فوات الأوان . فهل من معتبر ؟ .

زيارة القبور :

كان رسول الله ﷺ قد نهى الناس عن زيارة القبور ثم بعد ذلك أباح
لهم زيارتها .. وكان هو عليه الصلاة والسلام أول من زار القبور فزار قبر أمه .
ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ (٢٩) .

وتندب زيارة القبور في كل الأيام وذلك للاعتبار بجلال الموت ،
وأهوال القيامة فيرق القلب ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ ، وتدمع العين ،
وتزهّد في الدنيا ، وترغب في الآخرة ، فضلاً عن أن الموتى ينتفعون بالدعاء
والاستغفار لهم من الزائرين ..

(٢٩) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة » (٣٠) .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي ألا فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين ، وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجرا » (٣١) .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة » (٣٢) .

وكان عليه الصلاة والسلام يزور قبور أهل البقيع بالمدينة مرارا ويسلم عليهم ويدعوا لهم كما كان عليه الصلاة والسلام يزور قبور الشهداء بأحد كل سنة مرة وكان يقول لهم : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وزيارة النساء للقبور مباحة لما ذكر من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ بشرط أمن الفتنة منهن وعدم اشتغال الزيارة على محرم من ندب ونياحة أو الخلاعة والمجون كما يحدث في زيارة المقابر الآن .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كيف يارسول الله إذا زرت القبور ؟ قال : ﴿ قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ﴾ .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زر القبر تذكر به الآخرة وأغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله يتعرض كل خير » (٣٣) .

(٣٠) رواه الإمام مسلم والترمذى .

(٣١) رواه ابن ماجه عن حديث ابن مسعود .

(٣٢) رواه الحاكم .

(٣٣) رواه الحاكم .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » (٣٤) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم وأنتم سلفنا ونحن بالأثر » (٣٥) .

وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ : « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة » (٣٦) .

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم .. وروى أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، وتصلي وتبكي عنده .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب باراً » (٣٧) .

وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله ﷺ : « أن الرجل يموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين » (٣٨) .

ومما سبق من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ نرى أن زيارة قبور الوالدين أو أحدهما فيه الخير الكثير للزائر أولاً حيث يكتب عند الله سبحانه وتعالى باراً لأنه قد بر بوالديه ولو بعد الممات حيث أن الحق سبحانه وتعالى

(٣٤) رواه الإمام مسلم

(٣٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(٣٦) الحديث : رواه ابن أبي الدنيا . (٣٧) الحديث : رواه الطبرانى .

(٣٨) الحديث رواه ابن أبي الدنيا .

حض المؤمنين على البر بالوالدين ولو كانوا من المشركين قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ ويتضح كذلك من حديث سيدنا رسول الله ﷺ أن الإحسان بالوالدين يجوز بعد الممات وذلك بالزيارة لهم والدعاء لهم والاستغفار لهم والتصدق عليهم .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » (٣٩) .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من زارني بالمدينة محتسبا كتبت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » (٤٠) .

البدع في الجنائز وعلى القبر :

الصياح والندب : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » (٤١) .

وعن أبى بردة قال : وجع أبو موسى وجعا شديدا فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله ، فصاحت امرأة من أهله فلم يستطيع أن يرد عليها شيئا فلما أفاق قال : أنا برىء ممن برىء منه رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » (٤٢) .

وعن المغيرة بن شعبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنه من نيح عليه يعذب بما نيح عليه » (٤٣) .

وعن أبى مالك الأشعرى أن النبي ﷺ قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام

(٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) متفق عليه .

(٣٩ ، ٤٠) رواه البيهقي

يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» (٤٤) .

وعن أبي موسى أن النبي ﷺ قال : « الميت يعذب ببكاء الحي : إذا قالت النائحة: واعضدها ، وانصرها ، واكسياه ، جُبد الميت وقيل له : أنت عضدها ، أنت ناصرها ، أنت كاسيها ؟ » (٤٥) .

ومن هنا يتضح لنا نحن معاشر المسلمين أن سيدنا رسول الله ﷺ قد نهى عن النياحة والصريخ والعيويل ولطم الوجوه وشق الثياب وصبغها بالسواد وأخبرنا رسول الله ﷺ بأن الميت يعذب ببكاء أهله عليه وعلى ذلك فإن الواجب على كل مسلم ومسلمة في هذه الحال أن يصبر ويحتسب وأن يتذكر قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَمَّا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

المساجد والسرَج على المقابر :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٤٦) .

وعن ابن عباس قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور .. والمتخذين عليها المساجد والسرج » (٤٧) .

والحديث يدلان دلالة قاطعة على تحريم إقامة المساجد على القبور كما أنها تدل على تحريم أنارة القبور .. ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله ونهى عن الصلاة إلى القبور ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، ولعن زوارات القبور وكان هديه أن لا تهان القبور وتوطأ ويجلس عليها ، ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها وتتخذ أعياداً وأوثاناً (٤٨) .

(٤٤) رواه الإمام أحمد ومسلم .

(٤٥) الحديث : أخرجه الحاكم والترمذي . (٤٧) الحديث : رواه الخمسة وابن ماجه .

(٤٦) الحديث : متفق عليه . (٤٨) كتاب زاد المعاد ج ١ .

الذبح عند القبر :

نهى الشارع عن الذبح عند القبر تجنباً لما كانت تفعله الجاهلية ، وبعداً عن التفاخر والمباهاة فقد روى أبو داود عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عقر في الإسلام » .

وقال الخطائى : كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد يقولون : نجازيه على فعله ، لأنه كان يعقرها في حياته ، فيطعمها الأضياف فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً في حياته^(٤٩) .

الجلوس على القبر والاستناد إليه :

لا يحل الجلوس على المقابر ولا الاستناد إليها لما رواه عمرو بن حزم قال : رأى رسول الله ﷺ متكئاً على قبر ، فقال : « لا تؤذ صاحب هذا القبر ، أو لا تؤذه »^(٥٠) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يجلس أحدكم على جمرة ، فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خيراً له من أن يجلس على قبر »^(٥١) .

(٤٩) كتاب فقه السنة ج ٤ :

(٥٠) الحديث : رواه الإمام أحمد .

(٥١) الحديث : رواه أحمد ومسلم .

تجسيص القبر والكتابة عليه :

عن جابر رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يجسص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه »^(٥٢) والتجسيص معناه الطلاء بالجير وذلك لأن القبر للبلى لا للبقاء وأن تجسيصه من زينة الدنيا ولا حاجة للميت إليها .

(٥٢) الحديث : رواه أحمد ومسلم والنسائي .

الفصل الثانى عذاب القبر ونعيمه

العذاب والنعم فى القبر حق
ألوان من العذاب والنعم
الأسباب التى يتعذب بها أصحاب القبور
الأعمال المنجية من عذاب القبر
الأعمال التى ينتفع بها الإنسان بعد مماته

الفصل الثاني عذاب القبر ونعيمه

مقدمة :

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : ان الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثا دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعا لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافة ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها وألذت براحتها وعانت وهى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها والأرواح حينئذ هى التى تبشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية. فى قبورها تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيما أو عذابا كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيما أو عذابا .

وقد أرانا الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجا فى الدنيا من حال النائم ، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على روجه أصلا والبدن تبع له وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرا مشاهدا فيرى النائم فى نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أكل

أو شرب فيستقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ^(١) .

هذا وللمتقدمين من فقهاء المسلمين كلام كثير في إثبات حقيقة عذاب القبر .. كانوا يردّون به على الملحدّين والزنادقة ومنكرى عذاب القبر ونعيمه ومنكرى الحياة البرزخية وما فيها من سؤال فعذاب أو نعيم كما أنهم كانوا ينكرون الأصناف العديدة من العذاب في القبر ... ولا يصدقون بأن القبر على ساكنه قد يتسع أو يضيق ...

والمعروف عند أهل السنة أن عذاب القبر ونعيمه حق كما أن القبر ذاته حق وسؤال منكر ونكير حق وأن القبر على الميت أما أن يكون حفرة من حفر النار أو يكون روضة من رياض الجنة .

ولقد ذكرنا فيما تقدم بعضاً من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ التي تنص بحق على أن الروح تعود بعد مقارقتها الجسد بالموت تعاد إليه بين الأكفان فتعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره وأن الروح ترفرف على النعش وهي تقول : « يا أهلى ويا ناسى لا تغرنكم الدنيا ولا تلعبن بكم كما لعبت بى جمعت المال من حله ومن غير حله ، ثم تركته لغيرى فالمهناً له والتبعة على .

فإذا ما دفن الميت في قبره أتاه ملكان أزرقان أنياهما تجر على الأرض وهما المنكر والنكير - وكلنا يؤمن أن سؤالهما حق لا مرية فيه . فيسألانه عن ربه وعن دينه وعن قوله في سيدنا رسول الله ﷺ وعن علمه فأما الصالح فيوفقه الحق سبحانه وتعالى إلى الجواب الصحيح .. وأما الفاسق والكافر فإن الله سبحانه وتعالى يخذله في تلك اللحظات ويتركه لنفسه فلا يجيب وكلنا يؤمن بأن للقبر ضغطة ما نجا منها أحد أبدا ولن ينجو منها أحد .. وأن القبر يخاطب الميت بلسان زلق طلق .. فإن كل هذه الأمور دلت على عود الروح إلى القبر وأن الميت يسمع كل ذلك ثم هناك يلقي الميت بالحجة والتلقين لا يكون إلا لمن يعى ما يسمع تماما .

(١) كتاب الروح ص ٨٨ : ٨٩ .

وان كان هناك من يشك في أمر عذاب القبر ونعيمه فيقول هل هذا العذاب يقع على الروح فقط أم على الروح والبدن أم على البدن فقط .

هذا وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه عن هذا الأمر وكان جوابه ما نصه : بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة ، أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

عذاب القبر ونعيمه ، حقيقة :

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ،

(٢) السجدة : ٢١ . (٣) غافر : ٤٦ . (٤) الأنعام : ٩٣ .

وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ،
وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ،
إن هذا هو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴿٥﴾ .

إن هذه الآيات الكريمة حملت إلينا أنباء عذاب القبر ونعيمه فعذاب القبر
هو العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر في يوم القيامة فهو تصلية جحيم وهو
نزل من حميم .

هذا وقد تواترت أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ تحمل إلينا أنباء عذاب
القبر ونعيمه لتكون لنا العبرة والعظة وما ينطق عن الهوى بل هو كما قال فيه
الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى
يوحى ﴾ .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على عجوز من عجائز يهود
أهل المدينة ، فقالت : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتها ولم
أنعم أن أصدقها قالت : فخرجت ودخل على رسول الله ﷺ فقلت :
يا رسول الله إن عجوزا من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل
القبور يعذبون في قبورهم ، قال : « صدقت أنهم يعذبون عذابا تسمعه
البهائم كلها » قالت : فما رأيت بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر (٦) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي ﷺ : مر بقبرين فقال : « أنهما
ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول
وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، ثم عاد بجريدة رطبة وشقها نصفين فقال :
لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » (٧) .

وعن زيد بن ثابت قال : بينما رسول الله ﷺ في حائط لبنى النجار

(٥) الواقعة : ٨٩ ، ٩٦ .

(٦) الحديث : رواه البخارى ومسلم .

(٧) الحديث : رواه البخارى ومسلم .

على بغلته ونحن معه إذ نحات به فكادت تلقيه ، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال : « من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ ، فقال رجل : أنا ، قال : متى مات هؤلاء ؟ » قال : ماتوا في الأشرار ، فقال : إن هذه الأمة تبلى في قبورها ، فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال » (٨) .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجى أيتها الروح الطيبة راضية مرضيا عنك ، إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا ، حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ قال : فيقولون : دعوه يستريح ، فإنه كان فى غم الدنيا ، فإذا قال : آتاكم فيقولون : انه ذهب به إلى أمة الهاوية ، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : أخرجى مسخوطا عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون : فما أنتن هذه الروح ، حتى يأتوا به أرواح الكفار » (٩) .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباب الریحان ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ، ويقال : أيتها النفس المطمئنة أخرجى راضية مرضيا عنك

(٨) الحديث : رواه مسلم .

(٩) الحديث : رواه النسائي والبخاري ومسلم .

إلى روح الله وكرامته ، فإذا أخرجت روحه ، وضعت على ذاك المسك والريحان ، وطويت عليها الحريرة ، وبعث بها إلى عليين ، وإن الكافر إذا احتضر أته الملائكة بمسح فيه جرة فتزع روحه نزعا شديدا ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة أخرجي ساخطة ، ومسخوطا عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ، وإن لها نشيشا يطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين» (١٠) .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبي ﷺ : « المؤمن في قبره في روضة خضراء ، ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيماذا انزلت » فإن له معيشة ضنكا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تينا ، هل تدرون ما التين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رؤوس يخذشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

ألوان من عذاب القبر :

عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ » قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول : ما شاء الله ، فسألنا يوما فقال : « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا ، قال : « لكنى رأيت الليلة رجلين آتيا ، فأخذا

(١٠) الحديث : رواه ابن أبي الدنيا .

بيدي ، وأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده
كلوب من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل
ذلك ، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله ، قلت : ما هذا ؟ قالوا :
انطلق ، فانطلقنا حتى آتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على
رأسه بصخرة أو فهر (الحجر الناعم الصلب) فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه
تدهده (تدحرج) الحجر فانطلق إليه ليأخذه ، فلا يرجع إلى هذا حتى
يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضربه ، قلت : ما هذا ؟ قالوا :
انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار
فإذا فيه رجال ونساء عراه فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى
كادوا يخرجوا فإذا خمدت رجعوا ، قلت : ما هذا ؟ قالوا : انطلق فانطلقنا
حتى آتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه
حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر
في فيه فردده حيث كان ، فجعل كلما هم ليخرج رمى في فيه بحجر فرجع
كما كان ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : انطلق فانطلقنا ، حتى آتينا إلى روضة
خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من
الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا إلى الشجرة وأدخلا في دارا لم أر قط
أحسن منها ، فيها شيوخ وصبيان ثم صعدا إلى فادخلا في دارا هي أحسن
وأفضل ، قلت : طوفتاني الليلة فأخبراني عما رأيت ، قالوا : نعم ، الذي
رأيت يشق شدقه .. كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الأفاق ..
فيصنع به إلى يوم القيامة .

والذي رأيت يشدخ رأسه .. فرجل علّمه الله القرآن .. فنام عنه بالليل
ولم يعمل به بالنهار .. يفعل به إلى يوم القيامة .

وأما الذي رأيت في النقب .. فهم الزناة .. والذي رأيت في النهر فأكل
الربا .. وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة إبراهيم والصبيان حوله فأولاد
الناس ، والذي يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين
وأما هذه الدار ، فدار الشهداء وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل ، فأرفع رأسك

فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة ، قالوا : ذلك منزلك ، قلت : دعانى
أدخل منزلى ، قالوا : أنه بقى لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملته آتيت
منزلك » (١١) .

ومن المؤكد أن رؤيا الأنبياء وحى مطابق لما فى نفس الأمر وعلى ذلك
فهذا نص يكشف لنا بعضا من ألوان عذاب القبر .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية : ﴿ سبحان
الذى أسرى بعبد له ليلا ﴾ (١٢) إلا أنه أتى بفرس فحمل عليه قال : كل خطوة
منتهى أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم
ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبرائيل من
هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة .
﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ (١٣) ثم أتى على قوم
ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفترون عنهم شيء
من ذلك قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم
عن الصلاة ، قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع
يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع ، والزقوم ، ورضف جهنم (حجارة
جهنم) وحجارتها قال : ما هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون
صدقات أموالهم وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعباد ، ثم أتى على قوم من بين
أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث
ويدعون النضيج الطيب ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هذا الرجل
يقوم وعنده امرأة حلالة طيبا فيأتى المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح ثم يأتى
على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصفته يقول الله تعالى :
﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ (١٤) ثم مر على رجل قد جمع حزمة

(١١) الحديث : رواه الإمام البخارى .

(١٢) سورة الإسراء الآية : ١ .

(١٣) سورة سبأ الآية : ٣٩ .

(١٤) الأعراف : ٨٦ .

عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أدائها وهو يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرر شفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع^(١٥) .

وجاء في قصة الإسراء من رواية أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيته يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة أجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة أجعلوها في سجين ، ثم مضيت هنية فإذا أنا بأخونة عليها لحم قد أروح نتن وعندها ناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام ، قال ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام .. بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجئ السابلة فتطأهم فيصيحون ، قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾^(١٦) قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بقوم مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، ثم هنية فإذا بنساء معلقات بثديهن فسمعتن يصحن قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزواني ، ثم مضيت هنية فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون ، فيقال : كُلْ كما كنت تأكل لحم أخيك ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الهمازون من أمتك ... الحديث^(١٧) .

(١٥) رواه البيهقي

(١٦) سورة البقرة الآية : ٢٧ .

(١٧) الحديث : رواه البيهقي

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنه في قصة الإسراء قال : قال رسول الله ﷺ : « ... ورأيت رجلا منقلباً على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة يضربونهم بمقامع من حديد ، قلت : من هؤلاء ؟ يا جبريل ، قال : هؤلاء اللوطية الذين يأتون الفاحشة في الذكران من العالمين ورأيت أقواما بين أيديهم لحم طيب ولحم خبيث وهم يأكلون الخبيث ويتركون الطيب فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء هم الزناة ، ورأيت رجلا .. ونساء ألسنة النار تدخل في أدبارهم وتخرج من أفواههم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الهمازون واللامازون والغمازون ، ورأيت رجلا ونساء رؤوسهم مغمورة في نار جهنم ويصب عليهم الحميم والزمهرير يلفحهم فيهرى لحومهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يلقون العداوة بين الناس ويرمون بينهم بالفتن ... » الحديث

وفي سنن أبي داود من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » الحديث

ويذكر لنا الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب الروح فيقول :

أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها اضطجع ليستريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلا فوقفا على أحد الأقبر فقال أحدهما لصاحبه : أكتب فرسخا في فرسخ ، ثم وقف على الثاني ، فقال : أكتب ميلا في ميل ثم وقف على الثالث فقال : أكتب فترا في فتر ، ثم انتهت فجىء برجل غريب لا يؤبه له فدفن في القبر الأول ، ثم جىء برجل آخر فدفن في القبر الثاني ، ثم جىء بامرأة مترفة من وجوه البلد حولها ناس كثيرة ، فدفنت في القبر الضيق الذي سمعه يقول : فترا في فتر .. والفتر ما بين الإبهام والسبابة .

ويقول : أن النار التي تكون في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها ، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا ، فإن الله سبحانه يحمي على ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحتة حتى يكون أعظم

حرا من جمر الدنيا ولو مسحها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره ، وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل ريحها ونعيمها إلى جاره .

وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك ، قد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه الله وعصمه .

فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور فإذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه ، وغيبه عن غيره ، إذ لو أطلع العباد كلهم لازالت كلمة التكليف ، والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيحين : عنه صلى الله عليه وسلم لولا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع .

ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته ، كما حادت برسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره .

وذكر أن رجلا خرج من داره بعد العصر بأمد إلى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور ، فإذا بقبر منها وهو جمر نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه ، فجعلت أمسح عيني وأقول : أنا أم يقظان ؟ ثم التفت إلى صور المدينة وقلت : والله ما أنا بنائم ، ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش ، فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل ، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا مكأس قد توفي ذلك اليوم .

فرؤية هذه النار في القبر كروية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء الله أن يريه ذلك .

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور ، عن الشعبي أنه ذكر رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقعدة حتى يغيب في الأرض ، ثم يخرج فيفعل به ذلك ، فقال رسول الله

ﷺ : ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة .

وقال عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : بينا أنا أسير بين مكة والمدينة على راحلة إذ مررت بمقبرة فإذا رجل خرج من قبره يلتهب نارا وفي عنقه سلسلة يجرها فقال : يا عبد الله أنضح ، يا عبد الله أنضح ، فوالله ما أدري أعرفني باسمي أم كما ندعو الناس ؟ قال : فخرج آخر فقال : يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ، ثم اجتذب السلسلة فأعاده في قبره .

وذكر ابن أبي الدنيا عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبره يلتهب نارا مصفدا في الحديد فقال : يا عبد الله انضح ، يا عبد الله انضح ، قال : وخرج آخر يتلوه فقال : يا عبد الله لا تنضح ، يا عبد الله لا تنضح قال : وغشى على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج ، قال : وأصبح قد ابيض شعره ، فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده .

وذكر عن أبي قزعة ، قال : مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم .. : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل كان عندنا ، كانت أمه تكلمه بالشئ فيقول لها : أنهى نهيقك ، فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة .

وقيل ان عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت ، وكان يأتيها يعودها ، ثم ماتت ، فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسي شيئا في القبر كان معه ، فأستعان برجل من أصحابه قال : فنبشنا القبر ، ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أى حال أختي ، فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل نارا فردده وسوى القبر ، فرجع إلى أمه فقال : ما كان حال أختي ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت ؟ فقال : لتخبريني ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ، ولا تصلى فيما أظن بوضوء ، وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذناها أبوابهم ، وتخرج .. حديثهم .

وروى مرثد بن حوشب ، قال : كنت جالسا عند يوسف بن عمر
وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد ، فقال له يوسف : حدث
مرثدا بما رأيت ، فقال : كنت شابا قد آتيت هذه الفواحش فلما وقع الطاعون
قلت : أخرج إلى ثغر من هذه الثغور ، ثم رأيت أحفر القبور ، فإذا بي ليلة بين
المغرب والعشاء قد حفرت وأنا متكئ على تراب قبر آخر إذ جىء بجنائزة
رجل حتى دفن في ذلك ، وسووا عليه ، فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل
البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله ، ثم أثراه ثم تدلى
أحدهما في القبر ، والآخر على شفره ، فجئت حتى جلست على شفير القبر ،
وكنت رجلا لا يملأ جوفي شيء ، قال : فسمعتة يقول : ألسن الزائر
أصهارك في ثوين ممصرين تسحبهما كبرا تمشى الخيلاء ؟ فقال : أنا أضعف
من ذلك ، فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهنا ثم عاد ، فأعاد إليه
القول حتى ضربه ثلاث ضربات ، كل ذلك يقول ذلك ويذكر أن القبر يفيض
ماء ودهنا ، قال : ثم رفع رأسه فنظر إلى فقال : انظر أين هو جالس بلسه
الله ، قال : ثم ضرب جانب وجهي فسقط فمكثت ليلتي حتى أصبحت ،
قال : ثم أخذت انظر إلى القبر فإذا هو على حاله .

يقول الإمام ابن القيم : فهذا الماء والدهن في رأى العين لهذا الرأى هما
نار تأجج للميت كما أخبرنا النبي ﷺ عن الدجال أنه يأتى معه بماء ونار ،
فالنار ماء بارد والماء نار تأجج .

وذكر ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك
يامسلمة من دفن أباك ، قال : مولاي فلان ، قال : فمن دفن الوليد ؟ قال :
مولاي فلان ، قال : فأنا أحدثك ما حدثنى به أنه لما دفن أباك والوليد
فوضعهما في قبورهم وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههما قد حولت
أقفيتهما ، فانظر يامسلمة إذا أنامت فالتمس وجهي فانظر هل نزل بي ما نزل
بالقوم ، أو هل عوفيت من ذلك ؟ قال مسلمة : فلما مات عمر وضعته
في قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه .

وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف ، قال : ماتت ابنة لى فأنزلتها

القبر ، فذهبت أصلح اللبنة فإذا هي قد حولت عن القبلة ، فاغتممت لذلك غما شديدا ، فرأيتها في النوم فقالت : ياأبتى اغتممت لما رأيت ، فإن عامة من حولي محولين عن القبلة ، قال : كأنها تريد والذين ماتوا مصرين على الكبائر .

وقيل عن عبد الحميد بن محمود قال : كنت جالسا عند ابن عباس رضى الله عنه ، فأتاه قوم فقالوا : إنا خرجنا حجاجا ومعنا صاحب لنا إذ آتينا فإذا الصفاح مات (يعنى ذلك الصاحب) ، فهياناه ، ثم انطلقنا ، فحفرنا له ولحدنا له فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد ، فحفرنا له آخر ، فإذا به قد ملأ لحده ، فحفرنا له آخر ، فإذا به ... فقال ابن عباس : ذاك الغل يغل به ، انطلقوا فأدفنوه في بعضها فو الذى نفسى بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه ، فانطلقنا فوضعناه في بعضها ، فلما رجعنا آتينا أهله بمحتاج له معنا ، فقلنا لامرأته : ما كان يعمل زوجك ؟ قالت : كان يبيع الطعام ، فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله ،

وذكر ابن أبى الدنيا عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور قال : حفرت قبرا ذات يوم ، ووضعت رأسى قريبا منه فأتتنى امرأتان في منامى ، فقالت أحدهما : يا عبد الله نشدتك بالله ألا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها ، فاستيقظت فزعا ، فإذا بجنازة امرأة قد جىء بها فقلت : القبر وراءكم ، فصرفتهم عن ذلك القبر ، فلما كان الليل ، إذ أنا بالمرأتين في منامى تقول أحدهما : جزاك الله عنا خيرا ، فلقد صرفت عنا شرا طويلا ، قلت : ما لصاحبتك لا تكلمنى كما تكلمينى أنت ؟ قالت : أن هذه ماتت عن غير وصية ، وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة .

الأسباب التى يتعذب بها أصحاب القبور :

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الأسباب في كتابه الروح فقال : أن جواب هذا الأمر على وجهين : مجمل ومفصل :

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وأضاعتهم لأمره ، وارتكابهم لمعاصيه ، فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وأمثلت أمره .. واجتنبت نهيه ،

ولا أبدانا كانت فيه أبدا ، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده ، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه مستقل ومستكثر ، ومصداق ومكذب .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين الذين رآهما يعذبان في قبورهما .. يمشي أحدهما بالثمرة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول ، فهذا ترك الطهارة الواجبة وذلك أرتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا ، كما أن ترك الاستبراء من البول : تنبيه على أن من ترك الصلاة .. التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا .

وفي حديث شعبة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس .. فهذا مغتاب وذلك نمام وقد تقدم حديث (ابن مسعود رضي الله عنه) في الذي ضرب امتلاء القبر عليه به نارا ، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم لم ينصره .

وقدم حديث سمرة في صحيح البخاري : في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الأفاق ، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار وتعذيب الزناة والزواني وتعذيب آكل الربا ، كما شاهدتهم النبي ﷺ في البرزخ .

وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي فيه : رضح رؤوس أقوام بالصخر لتثاقل رؤوسهم عن الصلاة ، والذين يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم ، والذين يأكلون المتن الخبيث لزناتهم ، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب .

وتقدم حديث أبي سعيد : وعقوبة أرباب تلك الجرائم فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم أكلة الربا ، ومنهم من تفتح

أفوافهم فيلقمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم وهم أكلة أموال اليتامى ،
ومنهم المعلقات بشديهن وهن الزواني ومنهم من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم
وهم المغتابون ، ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم
وهم الذين يغمتون أعراض الناس .

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن صاحب الشملة التي غلها من المغنم أنها
تشتعل عليه نارا في قبره هذا وله فيها حق ، فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له
فيه .. فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان ،
والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، والبدن كله ، فالمنان والكذاب والمغتاب
وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة ، والداعى إلى البدعة ، والقائل
على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف في كلامه ، وآكل الربا ، وأكل
أموال اليتامى وأكل السحت من الرشوة والبرطيل ونحوهما ، وآكل مال أخيه
المسلم بغير حق ، أو مال المعاهد ، وشارب المسكر ، وآكل لقمة الشجرة
المعلونة ، والزانى ، واللوطى ، والسارق ، والخائن ، والغادر ، والخادع ،
والماكر وآخذ الربا ، ومعطيه ، وكاتبه وشاهداه ، والمحلل ، والمحلل له ،
والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذى المسلمين ، ومتبع
عوراتهم ، والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله ، والمعين على الأثم
والعدوان ، وقاتل النفس التي حرم الله ، والملحد في حرم الله ، والمعطل لحقائق
أسماء الله وصفاته ، الملحد فيها ، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول
الله ﷺ ، والنائحة والمستمع إليها ، ونواح جهنم وهم المغنون الذى حرمه الله
ورسوله والمستمع إليهم ، والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها
القناديل والسرر ، والمطففون فى استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا
بذلوه ، الجبارون ، والمتكبرون ، والمراؤون ، والهمازون ، واللمازون ،
والطاعنون على السلف ، والذين يأتون الكهنة والمنجمين ، والعرافين
فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ،
والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله
خاف وارعوى وكف عما هو فيه ، والذى يهدى بكلام الله ورسوله
فلا يهتدى ولا يرفع به رأسا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ

عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه ، والذي يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه ، وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقه الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قبله دواعي الطرب وود أن المغنى لا يسكت ، والذي يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برىء من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب ، والذي يفتخر بالمعصية ويكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر ، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك ، والفاحش اللسان البذيء الذي تركه الخلق اتقاء شره وفحشه ، والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها ، وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ، ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه ، ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام ، ولا يصل رحمه ولا يصل المسكين ، ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم ، بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، ويرأى للعالمين ويمنع الماعون ويشغل بعيوب الناس على عيبه وبذنوبهم على ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها .. وصغرها وكبرها .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذنين ، والفائز منهم قليل ، فظواهر القبور تراب وبواطنها حشرات وعذاب ، ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهي والبليات تغل بالحشرات كما تغل القدور بما فيها وينح لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانتها ، تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت : يا عمار الدنيا لقد عمرتم دارا موشكة بكم زوالا وخربتم دارا أنتم مسرعون إليها انتقلا وعمرتم بيوتا لغيركم منافعها وسكنائها وخربتم بيوتا ليس لكم مساكن سواها ، هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال ، وبذر الزرع ، وهذه محل للعبرة : رياض من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

الأعمال المنجية من عذاب القبر :

أما الأعمال التي تنجى صاحبها من عذاب القبر هي : إقامة الفرائض والسنن كما يحب الله ويرضى .. وتجنب الأعمال المنافية لآداب الإسلام ونواهيها والتي أدت إلى عذاب القبر كما ذكرنا آنفا .. وتجنب المحارم وكل ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ورسوله عليه الصلاة والسلام ..

ومحاسبة النفس على ما قدمت في يومها الذي انقضى .. والاستغفار عما بدر منها من ذلات .. والعودة إلى الله سبحانه وتعالى بتوبة نصوح والعزم على عدم معاودة الذنب أبدا .. والعزم على فعل الخيرات وكل ما ينفع الناس فقد قال الحق سبحانه وتعالى في وصف عباده الاتقياء ... فقال وقوله الحق : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ .

وحفظ القرآن وتلاوته والتعبد به .. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأقى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي ﷺ : « هي المانعة ، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » (١٨) .

والجهاد في سبيل الله : فعن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » (١٩) .

(١٨) الحديث : رواه الإمام الترمذی .

(١٩) الحديث : رواه الإمام مسلم .

وعن فضاله بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن من فتنه القبر » (٢٠) .

ويكفي أن نسمع في هذا المقام إلى حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي رواه عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال : « إني رأيت البارحة عجبا : رأيت رجلا من أمتي ، أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه .

ورأيت رجلا من أمتي ، قد احتوشته الشياطين ، فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه .

ورأيت رجلا من أمتي ، يلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاها وأرواه .

ورأيت رجلا من أمتي ، ورأيت النبيين جلوسا ، حلقا حلقا ، كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع ، فجاءه غسله من الجنابة ، فأخذ بيده فأقعه إلى جنبى .

ورأيت رجلا من أمتي ، من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه ، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور .

ورأيت رجلا من أمتي ، يتقى وهج النار وشرها ، فجاءته صدقته فصارت سترا بينه وبين النار وظلا على رأسه .

ورأيت رجلا من أمتي ، يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يامعشر المؤمنين أنه كان وصولا لرحمه فكلموه .. فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم .

(٢٠) الحديث : رواه الإمام الترمذى .

ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف .. ونبيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأخذته ملائكة الرحمة .

ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل .

ورأيت رجلا من أمتي ، قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه .

ورأيت رجلا من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه .

ورأيت رجلا من أمتي قائما على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى .

ورأيت رجلا من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك .

ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومعنى .

ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته .

ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة» (٢١) .

الأعمال التي ينتفع بها الإنسان بعد مماته :

إن انتفاع الإنسان بعمله الذي تسبب فيه قبل موته ثابت شرعا بنص الكتاب والسنة واجماع الأمة .

(٢١) الحديث : رواه الحافظ أبو موسى المديني .

أما الأعمال التي ينتفع بها الإنسان بعد موته فهي كثيرة ومنها :

الصدقة الجارية ، التي يكون الإنسان قد تصدق بها حال حياته وظل
لهذه الصدقة خير ينتفع به الناس بعد مماته فله أجره عنها حتى ينقطع انتفاع
الناس بها .

العلم ، الذي ينتفع به الناس حال حياته واستمر انتفاعهم به بعد مماته
فله أجره عنه ما دام الناس ينتفعون بهذا العلم .

التربية الصالحة للأبناء واعدادهم الحسن وحثهم على عبادة الله سبحانه
وتعالى ، فيكون للإنسان منهم الولد الصالح الذي يدعو له بالرحمة والمغفرة
كما قال تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

توريث كتاب الله عز وجل ، وهنا لفظة لطيفة ، فأنت لا تورث
المصحف أو تعده من أرثك إلا إذا كنت تعبد الله سبحانه وتعالى ، وتعرف
قيمة تلاوة القرآن ومقدار الثواب والأجر العظيم عليها ، ومن ناحية أخرى
لا بد أن تكون قد نشأت ولدك الذي سوف يرث كتاب الله عز وجل
على طاعة الله وحسن عبادته حتى يتقبل منك ذلك الإرث ويعمل به
وبما تقضى به أحكامه فيكون لك الأجر والثواب :

بناء المساجد وعمارتها وكذلك إيواء المساكين وعابري السبيل وحسن
ضيافتهم وكذلك شق الأنهار والمساقى وحفر الآبار ليشرب عباد الله .

والناظر المتأمل في هذه الأعمال يرى أنها تتفرع إلى كل عمل فيه خير
ينتفع به الناس حال حياته ويستمر ذلك الانتفاع بعد مماته .

أضف إلى ذلك القدوة الحسنة في كل أعمال الخير والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا
مات الإنسان انقطع عن عمله ، إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع

به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢٢) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أكراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته » (٢٣) .

وقال جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » (٢٤) .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، فأمسك القوم ، ثم ان رجلا أعطاه ، فأعطى القوم ، فقال النبي ﷺ : « من سن خيرا فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا ، ومن سن شرا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا » (٢٥) .

كما أن الإنسان ينتفع بما يهdy إليه من الناس بعد مماته :

ومن ذلك استغفار المؤمنين للذين سبقوهم بالإيمان قال تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ (٢٦) .

وكذلك الدعاء له في صلاة الجنائزة فانه ينفعه وقد سبق ذكر ذلك وعليه إجماع الأمة فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » (رواه ابن ماجه) .

(٢٣) الحديث : رواه ابن ماجه .

(٢٥) الحديث : رواه الإمام أحمد .

(٢٢) الحديث : رواه الإمام مسلم .

(٢٤) الحديث : رواه الإمام مسلم .

(٢٦) سورة الحشر : ١٠

وعن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ على جنازة ، فحفظت من دعائه وهو يقول : « اللهم اغفر له وأرحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله وأغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجته وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » (٢٧) .

وكذلك الدعاء له بعد الدفن ومن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم وأسألوا له الثبوت فإنه الآن يسأل » (٢٨) .

وكذلك الدعاء لهم عند الزيارة لهم وزيارة قبورهم .. فعن بريادة بن الخصيب قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وأنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » (٢٩) .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ : كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال : « قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وأنا إن شاء الله بكم للاحقون » (٣٠) .

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله ﷺ في ليلة من آخر الليل إلى البقيع فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » (٣١) .

وروى عن سيدنا رسول الله أنه قال : « ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت

(٢٧) الحديث : رواه ابن ماجه .

(٢٨) رواه ابن ماجه . (٢٩) رواه الإمام مسلم . (٣٠) رواه الإمام مسلم .

(٣١) الحديث : رواه الإمام مسلم .

أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء
والاستغفار» (٣٢).

وثبت عن رسول الله ﷺ أن ثواب الصدقة يصل إلى الميت .. فعن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمي افتاتت نفسها (فاجأها الموت) ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » (٣٣).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم : قال فإني أشهدك أن حائطي الخراف صدقة عنها » (٣٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ : إن أبي مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفي عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : « نعم » (٣٥).

وإذا كان التصديق عن الميت جائز شرعا ويصل ثواب الصدقة التي تهدي إليه أو يهدي له ثوابها فإن جميع أعمال الخير التي يهدي ثوابها إلى الميت جائزة شرعا ويصل إليه ثوابها وينتفع بها وهذه الأعمال بالإضافة إلى الدعاء والصدقة هي الصوم والحج والصلاة وجميع أعمال الخير يمكن إهداء ثوابها إلى الأموات .

فعن سعد بن عبادة أنه قال : يا رسول الله : إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « الماء » فحفر بئرا وقال هذه لأم سعد (٣٦).

وكذلك الصيام عن الميت : فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله

(٣٢) الحديث : رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس .

(٣٣) الحديث : رواه البخاري ومسلم .

(٣٤) الحديث : رواه البخاري .

(٣٥) الحديث : رواه الإمام مسلم .

(٣٦) رواه أحمد .

ﷺ قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » (٣٧) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أمى ماتت وعليها شهر أفأقضيه عنها ؟ قال : « نعم فدين الله أحق أن يقضى » (٣٨) .

وفى رواية الإمام البخارى : « جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها ؟ قال : « أفرايت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها ؟ » قالت : نعم ، قال : « فصومي عن أمك » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا ، فنجاهها الله فلم تصم حتى ماتت ، فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ ، فأمرها أن تصوم عنها (٣٩) .

وكذلك الحج :

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ، قال : « حجي عنها ، أرايت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء » (٤٠) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن امرأة سنان بن سلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ ، أن أمها ماتت ولم تحج ، أفيجزى عنها ؟ قال : « نعم ، لو كان على أمك دين فقضيته ألم يكن يجزىء عنها ؟ » (٤١) .

(٣٧) رواه البخارى . (٣٩) رواه الإمام أحمد .

(٣٨) الحديث : رواه البخارى ومسلم .

(٤٠) رواه الإمام البخارى .

(٤١) رواه الإمام النسائى .

الفصل الثالث منازل الأرواح

- أقوال الفقهاء واختلافهم .
- أرواح في السموات العلى .
- أرواح في الجنة وعلى أبوابها .
- أرواح في روضة من رياض الجنة في قبورها
- أرواح رهينة القبر
- أرواح في حفرة من حفر النار في قبرها .
- أرواح في النار .

أقوال الفقهاء واختلافهم في مستقر الأرواح

كان للفقهاء من علماء المسلمين ، آراء عديدة في مستقر الأرواح في مرحلة البرزخ .. ولكل منهم أدلته التي احتج بها :

منهم من قال : أن الأرواح المؤمنة .. عند الله .. في الجنة .. شهداء كانوا أم غير شهداء ، إذ لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين .. وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم .

وأحتج هؤلاء بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ قالوا : وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت .. وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها في الجنة في جنة النعيم ، (وأصحاب اليمين) حكم لها بالإسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب (ومكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزل من حميم ، وتصلية جحيم .

كما أحتج بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ اإِرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .. وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين : أن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا ، وهذه من البشرى التي قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وهذا التنزيل يكون عند الموت ، ويكون في القبر ، ويكون عند البعث وأول بشارة في الآخرة عند الموت .

كما أحتج هؤلاء ، بما رواه الإمام مالك في الموطأ عن سيدنا رسول الله ﷺ « لما أصيب إخوانكم - يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم

في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وفضيلهم قالوا : من يبلغ إخواناً أنا أحياء في الجنة لئلا يهلكوا عن الحرب ، ولا يزهدوا في الجهاد ؟ قال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : هذا مذهب أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

ومنهم من قال : أن أرواح المؤمنين بفناء الجنة وعلى بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها ... وهو قول مجاهد .

وأحتج بما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « الشهداء على بارقة نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » .

ومنهم من قال الأرواح على أفنية قبورها .. وقال الإمام بن القيم رحمه الله : إن أرادوا أن هذا الأمر لازم لها ، لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة .

وإن أرادوا أنهما تكون على أفنية القبور وقتاً ، أولها إشراف عليه وهى في مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

ومنهم من قال : أرواح المؤمنين ، عند الله تعالى .. وأحتج بما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الميت إذا خرجت نفسه ، يعرج بها إلى السماء حتى ينتهى إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء يعرج إلى السماء فإنه لا يفتح له أبواب السماء فترسل من السماء فتعاد إلى القبر » (١) .

(١) الحديث : رواه البخارى ومسلم .

ومنهم من قال : أن أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة .
وأرواح الكفار في سجين في الأرض السفلى .

ويدل عليه قول النبي ﷺ : « اللهم الرفيق الأعلى » (٢) .

ومنهم من قال : أن أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام وأرواح
الكفار عن يساره .

ويعلق الإمام ابن القيم على هذا القول : فيقول : فلعمري الله لقد قالوا قولاً
يؤيده الحديث الصحيح ، وهو حديث الإسراء ، فإن النبي ﷺ ، رآهم
كذلك ... ، ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم في اليمين والشمال بل يكون هؤلاء
عن يمينه في العلو والسعة .. وهؤلاء عن يساره في السفلى والسجن .

ومنهم من قال : أن مستقر الأرواح العدم الخيض ، على فرض أن الروح
عرض من أعراض البدن ، وهو الحياة .. وهو قول فاسد .

ومنهم من قال : أن مستقر الأرواح بعد الموت ، أبداناً آخر غير هذه
الأبدان .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : وهذا القول فيه حق وباطل :
فأما الحق : فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ : عن أرواح الشهداء ، وأنها
في حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، هي لها كالأوكار
للطائر ، وقد صرح بذلك في قوله : « جعل الله أرواحهم في أجواف طير
خضر ... » والحديث لابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله
ﷺ : « لما أصيب إخوانكم - يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم
في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى
إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم
ومشربهم ومقبلهم قالوا : من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا
ينكلوا عن الحرب ، ولا يزهدوا في الجهاد ؟ فقال الله تعالى أنا أبلغهم

(٢) الحديث : رواه الإمام أحمد .

عنكم .: فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

ويقول الإمام ابن القيم ، فإن قيل فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح ، في أبدان آخر غير أبدانها التي كانت فيها ، قبل هذا المعنى . الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ، ولا يبطله تسمية المسمى له تناسخاً .

كما أن اثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجسيماً ...

وإنما التناسخ الباطل : ما تقوله أعداء الرسل ، من الملاحدة وغيرهم من الذين ينكرون الميعاد ، وأن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان ، إلى أجناس الحيوانات والحشرات ، والطيور التي تناسبها وتشاكلها .

فإذا فارقت الأرواح أبدانها ، انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها أو تعذب ثم تفارقها ، وتحل في أبدان آخر تناسبها وتناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا ...

فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها ، لا معاد عندهم غير ذلك .

فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وهو كفر بالله وباليوم الآخر .

ثم يعقب ابن القيم رحمه الله بقوله في المسألة ، فيقول : الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت :

فمنها أرواح في أعلى عليين في الملاء الأعلى : وهى أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآها النبي ﷺ ، ليلة الأسراء والمعراج .

ومنها : أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء ، لا جميعهم ، بل أن من الشهداء من تحبس روحه عن

دخول الجنة ، لدين عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنة » فلما ولي قال : « إلا الذي سارني به جبريل آنفاً » .

ومنهم من يكون محبوساً في قبره ، كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد ، فقال الناس هنيئاً له الجنة ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره » (٣) .

ومنهم من يكون مقره : باب الجنة .. كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « الشهداء على بارقة نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » (٤) .

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب ، حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء .

ومنهم : من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملاء الأعلى فإنها كانت روح سفلية أرضية .

ومنها : أرواح تكون في تنور الزناة والزواني .. وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ...

فليس للأرواح سعيدها وشقيها ، مستقر واحد بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض ... (٥) .

(٣) رواه الإمام مسلم ج ١ ص ٧٦ .

(٤) رواه الإمام أحمد .

(٥) كتاب الروح للإمام ابن القيم - بتصرف .

مستقر الأرواح في البرزخ ومنازلها في هذا المستقر

إن الذي قال به الإمام بن القيم رحمه الله ، هو الحق ، وعلى أساسه نرى : أنه ليس للأرواح بعد الموت مستقر واحد .. بل لها في البرزخ مستقرات متعددة ، لأنها ليست على شاكلة واحدة .. ولكنها طوائف متعددة ، يحكمها قربها من الله سبحانه وتعالى وبعدها عن الإيمان به ، وعن صراطه المستقيم .

ولكل طائفة منها مستقر ، ولكل روح في ذلك المستقر منزلة منفردة ، وعلى هذا الأساس فمستقر الأرواح على سبعة أنواع ، وللأرواح فيها ملايين المنازل :

أولها : أرواح مستقرها السموات العلى

وهذا مستقر أرواح الأنبياء والمرسلين ، وهذه الطائفة التي اصطفاها الحق سبحانه وتعالى من خلقه ليست على منزلة واحدة في ذلك المستقر ولكنها متفاوتة المنازل ، كما راها سيدنا رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج .

ففي حديث الإسراء والمعراج الطويل الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ « فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا ... قيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ... فأتيت آدم وسلمت عليه فقال : مرحباً بك من ابن نبي ... ، فأتيت السماء الثانية ، ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، وقيل ومن

معك ؟ قال : محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ، ... ، فأتيت عيسى ويحيى ، فقالا : مرحبا بك من أخ ونبي ، فأتيت السماء الثالثة ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ... ، فأتيت يوسف فسلمت عليه ، قال : مرحبا بك من أخ ونبي ، ... ، فأتينا السماء الرابعة ... ، قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ... ، فأتيت ادريس فسلمت عليه ، قال : مرحبا بك من أخ ونبي ، ... ، فأتينا السماء الخامسة ، قيل : من هذا ؟ قال : محمد قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت هارون فسلمت عليه ، فقال : مرحبا بك من أخ ونبي ، ... ، فأتينا السماء السادسة ... ، قيل : من هذا ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ... ، وقد أرسل إليك ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على موسى فسلمت عليه ، فقال : مرحبا بك من أخ ونبي ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل : ما أبكاك ؟ قال : يارب هذا الغلام الذى بعث بعدى يدخل من أمتة الجنة أفضل مما يدخل من أمتي ، ... ، فأتينا السماء السابعة ... ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء ، ... ، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه ، فقال : مرحبا بك من ابن ونبي » الحديث

وفى رواية ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ثم صعدنا السماء الثانية ... ، ورأيت فيها شابين متشابهين فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : أحدهما يحيى بن زكريا والآخر عيسى بن مريم عليهما السلام ، ثم صعدنا السماء الثالثة ، ورأيت فيهما شيخا وشابا فقلت من هذا يا جبريل ؟ فقال : داود وسليمان عليهما السلام ... ،

ونظرت فإذا بينهما غلام جالس على كرسى من نور وقد أشرق النور من وجهه ، وصورته كالقمر ليلة البدر ، فقلت : من هذا الشاب يا أخى يا جبريل ؟ قال : هذا يوسف بن يعقوب - فضله الله بالحسن والجمال ، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة ، ورأيت رجلاً على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع ، فقلت : من هذا يا أخى يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك أدریس رفعه الله مكاناً علياً ، فإذا أنا برجل صبيح الوجه غزير العقل ، فلما رآنى ضحك مبتسماً فقلت : يا أخى يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم الخليل ، ثم ارتقينا إلى السماء الخامسة ... ، ثم ارتقينا إلى السماء السادسة ، ورأيت رجلاً كهلاً كثير الشعر عليه سدرعة من صوف أبيض يتوكأ على عصا يكاد شعره يغطى جسده له لحية بيضاء على صدره ، فقلت : من هذا يا أخى يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ، فضله الله بكلامه وجعله كليماً له ، ثم ارتقينا إلى السماء السابعة ... ، فإذا أنا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب ، جالس على كرسى من نور مسند ظهره إلى البيت المعمور ، وهو تلقاء الكعبة شرفها الله تعالى .

قلت يا أخى يا جبريل من هذا ؟ قال : أبوك آدم صلوات الله عليه وسلامه ... » الحديث .

ومن هنا ترى أن أول مستقر للأرواح هي السموات العلى ، ولقد جعلها الحق سبحانه وتعالى ، مستقراً لأرواح الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأذكى التسليم .

وهذه الأرواح الطاهرة الزكية حرة طليقة تسبح في ملكوت الله عز وجل وإذا كان مستقرها السموات العلى فإن لكل منها منزلة خاصة بها ومنفرد بها .

كما أن هذه الأرواح الكريمة على الله عز وجل وإن كانت في هذا المستقر الرفيع وفي منازلها العظيمة ، فإن لها إشراف على قبورها في الأرض ، وترد السلام على من يسلم عليها وقد ثبت ذلك بأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ .

وثانيها : أرواح مستقرها في الجنة وعلى أبوابها

وهذا هو المستقر الثاني للأرواح ، وهو مستقر أرواح الصديقين والصديقات والسابقين والسابقات وأصحاب اليمين وبعض الشهداء وأولياء الله الصالحين .

وهؤلاء رضوان الله عليهم جعل لهم الحق سبحانه وتعالى مستقرهم الجنة ولهم آلاف المنازل فيها .

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ، أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾^(٦) وقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان ، وجنة نعيم ﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضوض ، وطلح منضود وظل ممدود ، وماء منسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾^(٨) وقال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ .

وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ان نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه »^(٩) .

(٦) سورة الواقعة الآيات : ١٠ - ١١ .

(٧) سورة الواقعة الآيات : ٨٨ ، ٨٩ .

(٨) سورة الواقعة الآيات : ٢٧ : ٣٨ .

(٩) أخرجه الإمام مالك في الموطأ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
« لما أصيب إخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف
طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب ،
مدلاة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ،
قالوا : من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا ينكلوا
عن الحرب ، ولا يزهّدوا فى الجهاد ؟

فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن
الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (١٠) .

وروى الإمام البخارى عن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة
بن سراقه ، أتت النبی ﷺ فقالت : يابى الله الا تحدثنى عن حارثة ؟ وكان
قتل يوم بدر أصابه سهم غرب . فإن كان فى الجنة صبرت عليه وإن كان فى
غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال : « يأم حارثة ، إنها جنان وان ابنك
أصاب الفردوس الأعلى » .

فهذه الآيات الكريمة وأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ قد دلت دلالة
صريحة أن هذه الأرواح فى ذلك المستقر وأن لها منازلها المتعددة . .

وإذا كانت هذه الطوائف من الأرواح قد استحققت دخول الجنة
فى المرحلة البرزخية فدخلتها وكانت لها منازلها فيها فإن هناك طائفة أخرى
من الأرواح قد جعل الله سبحانه وتعالى مستقرها أبواب الجنة ينعمون بنعيمها
ويخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء
على بارقة نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة
وعشياً » .

(١٠) رواه الإمام أحمد .

وثالثها : أرواح مستقرها في روضة من رياض الجنة وهي في القبر

وهذا هو المستقر الثالث للأرواح ، وإن كانت في القبر إلا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الله هذا القبر عليها روضة من رياض الجنة وهو مستقر طائفة أخرى من المؤمنين ، يأتيهم من روحها ونعيمها إلى يوم يبعثون .
يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » .

وفي حديث البراء بن عازب الطويل - وقد تقدم ذكره (١١) - فبعد أن يسأل الميت في قبره فإن كان مؤمناً ينادى مناد من السماء « أن صدق عبدى أفرشوا له في الجنة ، والبسوه من الجنة ، وافتحو له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له قبره مد بصره » (١٢) الحديث .

وفي رواية أخرى : « ثم يفتح له باباً من الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن المؤمن في قبره لفي روضة خضراء ، فيرحب له قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه كالقمر ليلة البدر » (١٣) .

(١١) ذكر الحديث بطوله. (١٢) رواه الإمام أحمد .

(١٣) رواه أبو يعلى بن حبان في صحيحه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » (١٤) .

وعن قتادة عن أنس رضى الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « ان الميت إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، انه ليسمع خفق نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقولان : أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال رسول الله ﷺ فيراهما جميعاً ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون » (١٥) .

(١٤) رواه الإمامين البخارى ومسلم .

(١٥) رواه الإمامين البخارى ومسلم .

ورابعها : أرواح رهينة القبر

وهذا هو المستقر الرابع للأرواح ، فهناك أرواح مستقرها القبر ، حبيسة فيه حبساً مؤقتاً ، تلقى فيه من العذاب بقدر ذنوبها ، ثم يفرج عنها العذاب .
فهى رهينة القبر يشتعل عليها ناراً ، كصاحب الشملة التى غلها ثم استشهد فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده أن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره » .

فهذا شهيد ولكنه مذب ، فالشهادة فى نظرنا لا تتحقق إلا بالسلامة من الذنوب وإخلاص النية لله عز وجل ، وعلى قدر السلامة وإخلاص النية تكون درجة الشهيد .

ولذا ترى أن هناك شهداء أرواحهم فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالأوكار للطائر ، وقد سبقت هذه الأرواح وارتقت عليها فى المنزلة روح جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه المسمى . بجعفر الطيار حيث جعل الله سبحانه وتعالى له أجنحة يطير بها حيث يشاء فى الجنة . ثم هناك أرواح فريق آخر من الشهداء ببارقة نهر بباب الجنة .

وهذا مقياس لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، فرغم أن هذا المرهون فى قبره شهيد فى ميدان القتال إلا أنه معذب فى قبره ، ولم ترفع روحه ولم ترق إلى مراتب الشهداء ، ولم ترق روحه إلى النعيم الذى تصل إليه أرواح الشهداء .

فالروح المؤمنة المذنبه ، تحبس فى القبر وتعذب فيه مدة معينة يقدرها الحق سبحانه وتعالى ، بقدر ذنوبه ثم يعفو عنه .

وذلك قياساً على أنه يعذب يوم القيامة ثم يعفى عنه بالشفاعة ثم يدخله الله الجنة برحمته التي وسعت كل شيء .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله : أن عذاب القبر قد يكون منقطع بعد مدة وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم ، فيعذب بحسب جرمه ، ثم يخفف عنه ، كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب .

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من أقاربه أو غيرهم .

واستشهد في ذلك بحديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » (١٦) .

وكذلك حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، فأمسك القوم ، ثم أن رجلاً أعطاه ، فأعطى القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « من سنّ خيراً فأسنّ به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ شراً فاستن به ، كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً » (١٧) .

فأعمال الإنسان الصالحة التي قدمها في حياته تجرى عليه حسناته منها ما دام الناس ينتفعون بها أو يعملون بها ، فيخفف الله عنه بقدر هذه الحسنات أو ينقطع عنه العذاب في القبر بفضل هذه الحسنات .

وهذا المستقر هو مستقر الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولهم فيه آلاف المنازل .

(١٦) أخرجه الإمام مسلم . (١٧) أخرجه الإمام أحمد .

وخامسها : أرواح في حفرة من حفر النار في قبرها

وهذا هو المستقر الخامس للأرواح ، فهناك أرواح مستقرها القبر في حفرة من حفر النار .

وهذا مستقر العصاة ومرتكبي الكبائر ، فأرواحهم رهينة القبر في عذاب مستمر إلى يوم القيامة .

فالزناة والزانيات في تنور يشتعل عليهم ناراً هذه طائفة وطائفة أخرى منهم تأكل لحماً خبيثاً منتناً ، والنساء منهن معلقات بشديهن .

وأكلة الربا : يسبحون في نهر الدم يلقمون الحجارة ، وطائفة أخرى منهم بطونهم أمثال البيوت لا يستطيعون النهوض يقولون : رب لا تقم الساعة ، لأن ما هم فيه من العذاب قبسة يسيره من عذاب جهنم .

والذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً : لهم شافر كمشافر الأبل فيلقمون الجمر ثم يخرج من أسافلهم وهم في استغاثات مستمرة .

وأصناف العذاب لهؤلاء العصاة كثيرة وقد أوردنا بعضها منها عند الحديث عن ألوان من عذاب القبر^(١٨) .

فإذا كان مستقر هذه الطائفة القبر في حفرة من حفر النار إلا أن لكل منها منزلة منفردة بها وخاصة بها وخاصة لها ولون مستقل من العذاب .

(١٨) راجع ص

وسادسها : أرواح مستقرها النار

وهذا هو المستقر الأخير للأرواح ، فهناك أرواح مستقرها في سجين وما أدراك ما سجين ، يعرضون على النار بالغداة والعشي .

وهذا مستقر أرواح الكفار والفجار والفاسقين ...

فلما كان هناك أرواح قد دخلت الجنة - تتبوا منها حيث تشاء في البرزخية ، وقبل يوم القيامة - وكما ذكرنا آنفاً - وذلك لأنهم استحقوا دخولها يوم القيامة بغير حساب ، فدخلتها أرواحهم من الآن .

فكذلك أرواح الكفار الذين استحقوا أن يدخلوا النار يوم القيامة وبغير حساب - فإن أرواحهم قد دخلتها من الآن .

قال تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ﴾ . وهم في عذاب النار إلى يوم يبعثون ، بحسب دركاتهم .

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه الروح حديثاً عن أم كيشة بنت المعرور قالت : دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسألناه عن هذه الأرواح ؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت ، فقال : « إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتشرب من مائها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، يقولون : ربنا ألحق بنا إخواناً وأتناً ما وعدتنا ، وأن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار ، وتشرب

(١٩) سورة غافر الآية : ٤٦ .

من النار ، وتأوى إلى حجر في النار ، يقولون : ربنا لا تلحق بنا إخواننا
ولا تؤتنا ما وعدتنا .

فأرواح الكفار والفجار في النار يصلون الجحيم ويسقون من حميم
وغساق وهي في حواصل طير سود تأكل من النار ، وتأوى إلى حجر
في النار .

وإذا كان مستقر هؤلاء النار فإن لكل طائفة من هؤلاء منزلة منفردة بها
وخاصة لها ولون من ألوان العذاب غير الذي تلاقيه الطوائف الأخرى .

ومن هنا ترى أنه ليس للأرواح في المرحلة البرزخية مستقر واحد ، بل
أن لها عدة مستقرات - كما رأينا - ولها الآلاف بل الملايين من المنازل والمراتب
داخل هذه المستقرات .

« خاتمة »

قلنا في مقدمة هذا الكتاب أن الحق سبحانه وتعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته وتوحيده قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

وعرفنا أننا مسافرون إليه سبحانه وتعالى بل كلنا يؤمن أن الموت حق وأن القبر حق وأن منكر ونكير حق وأن عذاب القبر حق كما أن البعث والنشور حق والحساب حق والجنة والنار حق .

وتتبعنا معاً خطوات هذه الرحلة الغيبية ، وعرفنا ما يعانيه الإنسان في موته وما يلاقيه في نزعة الأخير ، وكيف أن الأعمال الصالحة تفيد صاحبها في هذه اللحظات المضنية الرهيبة تبيض فيها وتسود فيها وجوه إنها ساعة الرحيل من عالم الشهادة إلى أول منزل من منازل الآخرة .

وعرفنا أن في تلك الساعة تنزل الملائكة من السماء يحملون إلى الإنسان البشري فإن كان من أصحاب اليمين فيقولون له سلام لك من أصحاب اليمين ، هذه هي البشري الطيبة تحملها إليه ملائكة الرحمة ، إنهم يقفون بجانبه في هذه اللحظات يواسونه ويقدمون له كل ما تطمئن به نفسه وتقربه عينه حتى يرى مقعده من الجنة فينال الفرحة والسرور ويشرق وجهه بالنور .

وأما إن كان من أصحاب الشمال : فإن ملائكة العذاب يحملون إليه البشري السيئة فيقولون له أبشر بالذي يسؤك ويبشرونه بسخط من الله وغضب ليس ذلك فقط بل أن ملائكة العذاب يستعجلون الأمانة ويكرهون

روحه على الخروج فيضربون منه الوجه والأدبار وينزعون روجه كما ينزع المشط الحديد من الصوف المبلول ، وهذا كناية عن الروح وإخراجها بالإكراه معذبة مهلهلة .

ثم ناهيك عما يلاقيه هذا المذنب من العذاب فتراه مسود الوجه زائغ البصر له ذبد من شذقيه وله خوار كخوار الحمار ، انها فضيحة له أمام الناس وأمام أهله الحاضرين وفاته ، حتى أنهم لا يبكون مخافة فراقه ولكنهم يبكون اشفاقاً عليه مما هو فيه من العذاب ، ويتضرعون وأكفهم إلى السماء إنهم لا يطلبون له من الله عز وجل . البقاء وطول العمر ، ولكنهم يضرعون إليه سبحانه وتعالى كي يعجل الإمامة ويعجل بخروج روجه .

لقد اتفقت ضراعتهم إلى الله سبحانه وتعالى وما تفعله ملائكة العذاب مع روجه كل منهم يستعجل الإمامة .

ورأيت معي القبر وما فيه ... وسمعت معي وهو ينادى أنا بيت الوحدة ، أنا بيت الغربة ، أنا بيت الضيق إلا من وسعني الله عليه ، أنا بيت الوحشة أنا بيت الدود والصدید . إنها كلمات ينفطر لها أشد القلوب قسوة .

وسمعت معي منكراً ونكيراً هذان الملكان الأسودان الأزرقان بأنبيائهم التي تجر على الأرض وهما يسألان الميت عن ربه ودينه ورسوله المبعوث إليه وعلمه .

وعلمت كيف أن الحق سبحانه وتعالى يثبت الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقول الثابت ويوفقهم إلى الجواب الصحيح السليم .

وعلمت كيف أن الحق سبحانه وتعالى يترك العصاة لأنفسهم فيضلوا ولا يستطيعون الإجابة ويكون لهم من عذاب القبر .

ألم تر إلى الزناة وهم في التنور يشتعل عليهم ناراً ، وإلى النساء وهن معلقات بشدين ؟

ألم تنظر إلى الذين يأكلون الربا بطونهم أمثال البيوت لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس وغير ذلك من ألوان العذاب المتعدد ، كل بحسب معصيته وجرمه يلقي جزأؤه فى عذاب القبر ؟

والمؤمن بحسب إحسانه فىكون قدر ما هو فيه من النعيم ألم تنظر إلى تلك الأرواح الطاهرة الزكية التى تتبوأ من الجنة حيث تشاء ؟ وإلى تلك التى تأوى إلى قناديل معلقة بعرش الرحمن سبحانه وتعالى هى لها كالأوكار للطائر ، وإلى تلك الأرواح التى تقيم بيارقة نهر بباب الجنة يخرج عليها رزقها من الجنة بكرة وعشياً .

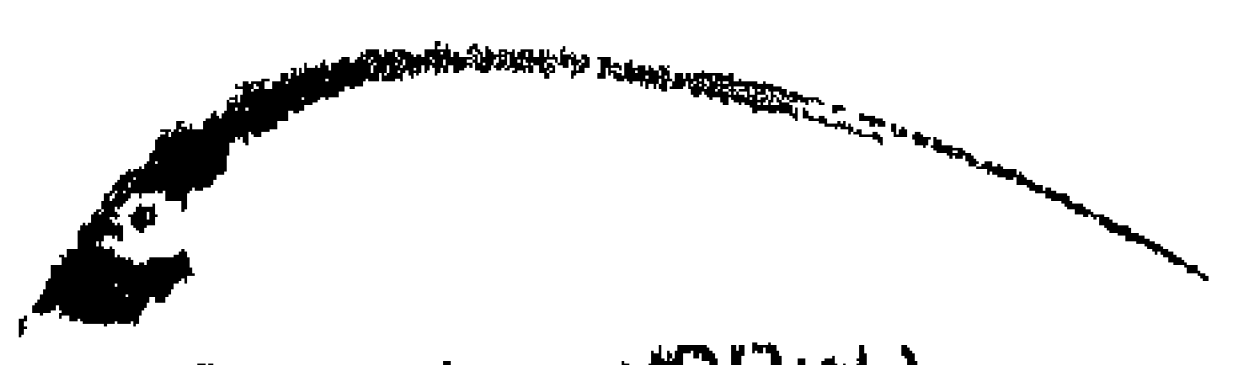
ألم تنظر إلى هذه الأرواح الكريمة التى أقامها الرحمن سبحانه وتعالى فى قبرها فى روضة من رياض الجنة تنعم فيها تنعيم الجنة .

فإن كنت سمعت ورأيت مثلى كل هذا ، فهل آن الأوان لأن ترجع إلى الله سبحانه وتعالى وتتوب إليه توبة نصوحا وتقدم لنفسك من الأعمال الصالحة ما يكون لك زخراً فى يوم السفر ويكون لك فرجاً ومخرجاً وزاداً فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة ؟

وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى وعلى الله قصد السبيل ،،،

تم بحمد الله وتوفيقه

الثانى عشر من جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ
القاهرة فى
الموافق السادس من فبراير عام ١٩٨٨ م
مصطفى اللمعى


BIBLIOTHECA ALLAH ANDRINA
مكتبة الاسكندرية

فهرس

الصفحة

٧	مقدمة
١٧	ذكر الموت
٢٠	الموت عبرة وعظه
٢٢	قصر الآمل فى الحياة الدنيا
٢٨	أقوال الصالحين فى ذكر الموت
٣٢	كيف نذكر الموت
٣٧	ذكر ملك الموت
٤٥	الإحتضار
٤٦	أحوال الناس فى ساعة الرحيل
٥٤	شدة سكرات الموت
٥٦	شدة الشيطان على الإنسان فى ساعة الرحيل
٧٩	غسل الميت
٨٠	صفة الغسل
٨١	الكفن
٨٢	تكفين المحرم
٨٢	الكفن من الحرير
٨٣	الصلاة على الميت
٨٦	كيفية الصلاة على الجنازة
٨٧	حمل الجنازة والسير بها
٩١	الحياة البرزخية

٩٧ القبر
١٠٣ ضغطه القبر
١٠٤ الأطفال وضغطه القبر
١٠٦ إستئناس الميت بالمشيعين لجنائزته
١٠٨ تلقين الميت
١١٠ تذكر القبور
١١٢ زيارة القبور
١١٥ البدع في الجنائز وعلى القبر
١١٧ الذج عند القبر
١١٧ الجلوس على القبر والإستناد إليه
١١٨ تخصيص القبر والكتابة عليه
١٢١ عذاب القبر ونعيمه
١٢٦ ألوان من عذاب القبر
١٣٨ الأعمال المنجية من عذاب القبر
١٤٩ أقوال الفقهاء في مستقر الأرواح
١٥٤ مستقر الأرواح في البرزخ
١٥٧ أرواح مستقرها في الجنة وعلى أبوابها
١٥٩ أرواح مستقرها في روضة من رياض الجنة وهى في القبر
١٦١ أرواح رهينة القبر
١٦٣ أرواح في حفر من حفر النار في قبرها
١٦٦ خاتمة

- الموت عبرة وعظه
- سكرات الموت
- شدة الشيطان على المحتضر
- غسل الميت وكفنه
- الصلاة على الميت - حكمها - فضلها - شروطها
- حمل الجنازة
- صلاة الجنازة
- عذاب القبر ونعيمه
- وصف القبر
- زيارة القبورة
- البدع في القبور
- الأسباب التي يتعذب بها أصحاب القبور
- الأعمال المنجية من عذاب القبر
- الأطفال وضغطة القبر
- منازل الأرواح
- الحياة البرزخية